معجزة
آدم عليه السلام

- اللّه تعالى خلق آدم بيده
- الخلق جميعاً خلقوا مع آدم
- المعجزة في خلق حواء
- سجود الملائكة لآدم
- طرد إبليس من الجنة

معجزة آدم عليه السلام

خلقه الله تعالى بيده

إن آدم خُلق[١] بيد الله تعالى مباشرة، فكلنا مخلوقون بقانون الخلق، ولا بد

---

(١) يقول ابن القيم في قول الله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾. إن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرداً، ومثنى، ومجموعاً.
فالمفرد: كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾. والمثنى: كقوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.
والمجموع: كقوله: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١].
فحيث ذكرت اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾. وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم يُعَدّ الفعل بالباء.
فهذه ثلاثة فروق. فلا يحتمل: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ من المجاز ما يحتمله: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾، ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] وأما قوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟، فكيف إذا ثنيت؟
وسرُّ الفرق: أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد: الإضافة إليه. كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ و﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.
وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدى بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما باشرته يده. ولهذا قال عبد الله بن عمر: «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده». فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة. وقد أخبر النبي ﷺ، أن: «أهل الموقف يأتونه يوم القيامة، فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده» [البخاري ٤٧١٢ ومسلم ١٩٤]. وكذلك قال آدم لموسى في محاجته له: «اصطفاك الله بكلامه، وخط لك الألواح بيده» وفي لفظ آخر: «كتب لك التوراة بيده» [البخاري ٦٦١٤ ومسلم ٢٦٥٢ وأحمد ٧٣٨١، ثلاثتهم عن أبي هريرة]. وهذا التخصيص إنما فهم من قوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فلو كانت مثل قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ لكان هو والأنعام في ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ =

أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقاً لسنة اللّه تعالى في خلقه، ولكن آدم خلقه اللّه سبحانه وتعالى مباشرة ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ أي: أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر، ولكنه مخلوق بيد اللّه مباشرة وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] إذاً.. فالتسوية من عند اللّه، والروح من عند اللّه. وكان أول من كلف من اللّه تعالى، حيث أمره رب العالمين أن يأكل كل شيء ما عدا ثمار شجرة معينة.

إذاً.. فالتكليف أمر بفعل ونهي عن فعل، وبما أن آدم مخلوق بيد اللّه فهو مكلف تكليفاً مباشراً من اللّه تعالى.

ولذلك إذا أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يهدم هذا الإنسان بالموت، فأول ما ينقض منه هي الروح التي هي آخر ما دخل في الجسم فتكون أول ما يخرج، لأن نقض الشيء على عكس بنائه، فأنت حين تبدأ بالبناء تبدأ بالدور الأول، ثم تعلو حتى تصل إلى الأخير. فإذا أردت أن تهدم هذا البناء تبدأ بالدور الأخير، آخر ما وصلت إليه في بنائك، وأنت حين تذهب إلى الإسكندرية، فإذا أردت أن تنقض هذه الرحلة وتعود إلى القاهرة، فإن أول مكان تغادره هو الإسكندرية، كذلك الموت وهو نقض للحياة، آخر ما دخل في الجسد هي الروح تكون أول ما يخرج منه، ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصبح كالفخار، ثم يتعفن فيصبح كالحمأ المسنون، ثم يرم فيصير طيناً، ثم يخرج منه الماء فيصير تراباً ليرجع إلى الأرض مرة أخرى.

إذاً.. فالموت دليل على مراحل الخلق كما أخبرنا اللّه سبحانه وتعالى بها، ونحن لم نشهد الخلق ولكن نشهد الموت كل يوم، فعندما أرى الموت أمامي على عكس بناء الحياة، أقول: آمنت باللّه، وصدق رسوله ﷺ فيما أخبرنا عن قصة الخلق.

❁ ❁ ❁

= ﴿بِيَدَيَّ﴾ يوجب له تخصيصاً وتفضيلاً بكونه مخلوقاً باليدين على من أمر أن يسجد له، وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه، كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ خطأ محضاً.

الصواعق المرسلة. بتصرف بسيط [ج١ ص٣٨ ـ ٣٩]

الخلق جميعاً خلقوا مع آدم؟!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ولم يقل الحق سبحانه وتعالى: «ولقد خلقنا آدم ثم صورناه»، ومع أن المخلوق فرد، إلاَّ أن الله سبحانه وتعالى استخدم صيغة الجمع لتشمل البشرية كلها، واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب إخباري، وليس ترتيب أحداث. فالإنسان مثلاً حين يتحدث عن أولاده ويشكو من عقوقهم، يقول: لقد فعلت لهم وهم في الجامعة كذا وكذا، ثم في التعليم الثانوي فعلت كذا وكذا، ثم في الإعدادي لم أهملهم، ولكني فعلت لهم كذا وكذا، يكون هذا ترتيباً إخبارياً، لكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ دليل على أن البشرية كلها خلقت لحظة خلق آدم.. كيف؟

العلم الحديث يعطينا مؤشرات لذلك، فالحيوان المنوي مثلاً ساعة يتم

عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم اللبن ثم ضرب كتفه اليسرى، فخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي».

أخرجه أحمد في المسند [٦/ ٤٤١] وإسناده صحيح

وعن عبد الرحمن بن قتادة السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال قائل يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر» [أحمد في المسند ٤/ ١٨٦]، وابن سعد في الطبقات [١/ ٣٠]، [٧/ ٤١٧] والحاكم في المستدرك [١/ ٣١]، وقال الحاكم صحيح ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

وعن هشام بن حكيم رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله أنبتدئ الأعمال أم قضي القضاء؟ فقال رسول الله: إن الله أخذ ذرية آدم من ظهره ثم أشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ ثم نثرهم في كفه فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، أما أهل الجنة فميسرون لعمل أهل الجنة، وأما أهل النار فميسرون لعمل أهل النار».

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٧/ ١٨٩] وعزاه للبزار والطبراني

التلقيح مطمور فيه كل صفات الوراثة. ولذلك فإن علم الوراثة يستطيع أن يتنبأ في بعض الأحيان بما سيصيب الإنسان من أمراض، وما سيكتسبه من صفات بدراسة تاريخ آبائه وأجداده، وفي بعض تصرفات الإنسان تجد من يقول لك: أبوه ـ اللّه يرحمه ـ كان كذلك، أو جده ـ اللّه يرحمه ـ كان كذلك، مع أن الأب أو الجد قد مات، والابن حي... نقول: إنه ساعة وجدت حياة الأب كان الجد حياً، وساعة وجدت حياة الابن كان الأب حياً، ولو أن كلّا منهما كان ميتاً ما اتصل الوجود، فأنا حي الآن، وساعة وجودي في رحم أمي كان ذلك من حيوان منوي حي من أبي، وساعة وجود أبي في رحم أمه كان من حيوان منوي حي من أبيه... وهكذا ولو عدنا إلى الوراء لوجدنا أن كل البشر الآن فيه جُزَيء حي من آدم، فابن آدم أخذ استمرار الحياة منه، وحفيده أخذها من أبيه، وهكذا من عهد آدم سلسلة الحياة لم تتوقف في أية حلقة من الحلقات، بل كانت حياة من حياة من حياة.

إذاً.. فحياتنا الآن متصلة بآدم، تماماً كما تأخذ مادة حمراء مَثَلاً، وتضعها في قارورة ترجها، كل قطرة في القارورة فيها جزء من المادة الحمراء، فإذا أفرغت هذه القارورة في برميل مملوء بالماء، كل قطرة من الماء فيها جزئ من المادة الحمراء. فإذا أخذت البرميل وألقيته في البحر، فإن كل قطرة من ماء البحر فيها جزء مُتناهٍ في الصغر من المادة الحمراء، لا تدركه العين. ولكن إن استطعنا أن نكبِّر الصورة ملايين المرات؛ فإننا ندركه. تماماً كالصورة التي تؤخذ لمدينة كبيرة من الجو، وقد التقطوا صورة لمدينة نيويورك من الجو، عندما كانت صغيرةً بدت كبقعة سوداء. وعندما كبَّروها ألوف المرات استطاعوا أن يقرءوا أرقام السيارات، فالشيء قد يكون غاية في الدقة لا يدركه البصر. فإذا استطعنا أن نكبره تحت المجهر رأينا أشياء لم نكن نراها. والتفاحة التي تأكلها الآن من أي بقعة في العالم، فيها جزيء صغير من البذرة التي نبتت منها أول تفاحة، وهذه هي التي تعطيها الخواص العامة لما نسميه نحن صنف التفاح. ثم بعد ذلك تختلف الأنواع، هذا تفاح أمريكي، وهذا تفاح لبناني، ولكن هذا الجزيء الصغير من التفاحة الأولى موجود في كل هذه الأنواع، وهو الذي يعطيها الصفات العامة.

إذاً.. فكل واحد منا فيه جزيء من آدم ما زال حيًّا لم يصبه الفناء، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولو أننا أعطينا العلم والخبرة ساعة خلق آدم، وأخذنا من الحيوان المنوي

الموجود في ظهره ثم كبرناه ملايين المرات، وعرفنا سر الشفرة فيه لاستطعنا أن نعرف كل من سيأتي من البشر بعد آدم[1].

إذاً.. يفهم من قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] أنه قدر سبحانه خلق كل واحد فينا وتكوينه، وأودعه في هذه الحيوانات المنوية التي خلقت من ظهر آدم، وكل عملية الخلق بعد ذلك هي تكبير لهذه الجزيئات الصغيرة، حتى تصل إلى الحجم الذي يمكنها من إيجاد الحياة. ولذلك فإن الخلق أمور؛ الله يبديها ولا يبتديها، أي أنها كانت مطمورة في ظهر آدم. ثم بعد ذلك يبدأ الله يظهرها فقط، ولذلك عندما يخاطب الله آدم، فهو يخاطب معه ذريته الموجودة في ظهره. وهكذا نكون قد عرفنا لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى صيغة الجمع في قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي ربِّ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته». أخرجه الترمذيّ [٣٠٧٦]، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني [٢٤٥٩] في صحيح الترمذي وبنحوه الحاكم في مستدركه [٣٢٥٧]، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. الوبيص: البريق واللمعان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بـ(نعمان) يوم عرفة، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ • أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] وهذا يؤيد الحقيقة العلمية التي تقول: الجزء يأخذ خصائص الكل، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوي.

المعجزة في خلق حواء

كلمة «آدم» حينما نتكلم بها نجدها في النحو مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث. لقد خلق الحق سبحانه الذكورة والأنوثة؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل.

إذاً... كان ولا بد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد؛ فالذكر والأنثى هما بنو آدم، ومنهما ينشأ التكاثر، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم، ونطقناه اسماً مذكراً، وسمى «حواء»، ونطقناه اسماً مؤنثاً، جعل سبحانه الاسم الأصيل الذي وجد منه الخلق هو ﴿نفس﴾ لقد قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] لقد سمى الحق آدم بكلمة ﴿نفس﴾ وهي مؤنثة.

إذاً.. ليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن التذكير هو فقط علامة لتضع الأشياء في مسمَّياتها الحقيقية. إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا ﴿نفس﴾، وهي كلمة مؤنثة. وأن الحق قال عن آدم أنه ﴿نفس﴾ رغم أنه مذكَّر، إلاَّ أنه سُمِّيَ بالمؤنث وهي ﴿نفس﴾ ولم يقل الحق «خلقكم من نفس واحد» بل قال: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾.

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] وكلمة: ﴿الناس﴾ تعني مجموع الإنسان. ومن ذلك نعرف أن كلمة إنسان تطلق مرة على المذكر، ومرة أخرى على المؤنث، إذاً.. فالحق سبحانه قد أورد مرة لفظاً مذكراً، ومرة أخرى أطلق لفظاً مؤنثاً، وذلك حتى لا نقول إن المذكر أحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط.

وهنا قد يتساءل سائل فيقول: هل هي من ضلع آدم؟ أم أنها مخلوقة بنفس أسلوب خلق آدم؟

إن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة لم يوضح لنا كيف تم خلق حواء. ولكنها دخلت في خطاب الله تعالى لآدم عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويوضح الحق سبحانه أن كل خلق من خلقه إنما هو من زوجين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وعلى ذلك فليس لأحد منا أن يقول: إن حواء كانت ضلعاً من آدم، لأنه قد يقول قائل: لماذا نأخذ معنى خلق حواء من نفس آدم بمثل هذا التصور؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد يكون لصاحب هذا القول حجة! لأن الحق تبارك وتعالى وصف رسول الله ﷺ أنه من البشر ومثلهم، وأن الرسول ﷺ يحزنه أن يصيب أمته الضرر، وهو ﷺ حريص على هداية المؤمنين لأن في قلبه رحمة بهم وفي نفسه شفقة عليهم، ولهذا فإنه ليس من الضروري أن يكون خلق حواء قد تم من جزءٍ من آدم؛ بل من الجائز أن تكون مخلوقة من مثل جنس آدم(١).

ويجب التنبيه إلى قصة خلق آدم والمعجزة فيها فهي بدء الجنس البشري فهناك تكليف من الله للإنسان، وهناك شيطان يغوي، وقد أفضت كثيراً في إيضاح العلاقة بين التكليف والإنسان، وبين الشيطان والإنسان، وأريد الآن أن أبحث بحثاً جديداً خالصاً وهو مسألة خلق حواء. إن إيضاح خلق حواء جاء في مقدمة سورة النساء حين يقول الحق جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

[أخرجه البخاري رقم [٥١٨٥] و[٥١٨٦]=

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

إن حواء لو كانت ضلعاً من آدم لقال الحقُّ: جعل منها زوجها، ذلك أن الجعل يعني الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد، وهو الحق المالك لكل الكون.

إن قول الحق: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هو تعبير عن خلق جديد مستقل، إننا عندما نأخذ مسألة الخلق هذه في ضوء الأفكار والمعتقدات الباطلة السائدة الآن كالشيوعية وغيرها، فإننا نجد أن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ كان المقصود به الرد على من سوف يأتون بعد زمن رسالة رسول الله ونزول القرآن الكريم.. هؤلاء الذين قالوا:

= **وفي تفسير ابن كثير**: أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وعلمه الأسماء كلها فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: ثم ألقيت السِّنَةُ على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كشف عنه السِّنَةَ وهبّ من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم: «لحمي ودمي وزوجتي» فسكن إليها فلما زوجه الله وجعل له سكناً من نفسه قال له قبيلاً: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنة كما قال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشياً ليس له زوج يسكن إليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم حواء؟ قال إنها خلقت من شيء حيّ. قال الله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

تفسير ابن كثير [١/ ٧٦]

وفي عمدة التفسير للشيخ شاكر قال: وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول الجنة. ويقال أن خلق حواء كان بعد دخول الجنة.

عمدة التفسير [١/ ١٣٥]

إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة، لكن هناك فيلسوفاً فرنسياً هو «مونيه» أراد أن يرد على من قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة. تساءل ذلك الفيلسوف: كيف يكون أمر الخلق صدفة؟! وهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة، أمن المعقول أن توجد صدفتان في آن واحد؟! صدفة تخلق رجلاً، وصدفة تخلق امرأة من جنس الإنسان، وتختلف مع الرجل في النوعية بحيث لو التقى الرجل بالمرأة لنشأ عن لقائهما جنين قد يكون رجلاً وقد يكون امرأة بعد أعوام تكاد تكون معروفة، هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدفة؟! هل يمكن لهذا النظام الدقيق الذي أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء ليكون بهذا اللقاء عمران الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف.. هل يمكن أن يكون ذلك الأمر صدفة؟ إذا كانت الصدفة تملك هذا القدر من التنظيم الدقيق فأنا أسميها اللّه.. هكذا يقول الفيلسوف الفرنسي. إنه يرفض أن يخرج مع الملاحدة الذين يرفضون نظام الكون والخضوع لقوانين التكليف فيصل بالاستنباط العقلي إلى قدرة الخالق جلّ وعلا.

وعلى هذا يمكننا أن نفهم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلق حواء مثلما خلق آدم، وكما أوضح لنا الحق أنه خلق آدم من طين.. فكذلك خلق حواء. ولنا أن نفهم أن كلمة زوج لا تعني الرجل فقط، ولكنها أيضاً تعني المرأة.. فالمرأة زوج.. والرجل زوج، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

إن كلمة زوج تطلق على الرجل عندما يتزوج، وتطلق أيضاً على امرأته، تماماً كما أن كلمة توأم تطلق على الوليد الذي يشاركه وليد آخر في نفس الرحم ويسميان توأمين، ذلك أنه من الخطأ الشائع أن تقول زوج على الرجل والمرأة معاً، إن المرأة والرجل معاً هما زوجان.

وهكذا نفهم من سياق ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي أن حواء قد خلقها اللّه خلقاً مستقلاً كما خلق آدم[1].

---

(١) يقول صاحب الكشاف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا بني آدم ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. فرَّعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؟، قلت: يعطف على محذوف كأنه قيل: من نفس واحدة، أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه. =

إن الذين يقولون: إن الخلق تم صدفة ويتم بالصدفة هم جهلاء بحقيقة العلم وبجوهر الإيمان، أي صدفة تلك التي تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم في وقت لا يعلمه إلا اللّه وحده؟!، ويأتيها الإخصاب من حيوان منوي خلقه اللّه ضمن ملايين الحيوانات المنوية في الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلي للرجل. ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقة فالمضغة وكساء العظام لحماً، ثم إنشاء الإنسان ليولد ليكون من الميلاد ذكر وأنثى وشعوب وقبائل، لذلك لا يمكن أن تكون صدفة لأن الصدف لا نظام لها، أما خلق الإنسان فله نظام حكيم وضعه إلٰهٌ قادرٌ خالقٌ، قدّر لكل خلق زماناً ومكاناً وهدفاً، إنه يخلق على هدى وعلى قدر.

إن الإحصاء المادي هو دليل إيمان باللّه. إن التعداد السكاني يزداد، ولو

= والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، هي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها.

ويقول الخازن في لباب التأويل في معاني التنزيل: قوله تعالى: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾. يعني: من أصل واحد وهو آدم أبو البشر عليه، وقوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾ يعني حواء، وذلك أن اللّه تعالى لما خلق آدم عليه السلام ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو قصير، فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه فقال لها: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: لماذا خلقت؟. قالت: لتسكن إليّ، فمال إليها وألفها لأنها خلقت منه.

ويقول ابن كثير في تفسيره: ﴿من نفس واحدة﴾ وهي آدم عليه السلام ﴿وخلق منها زوجها﴾ وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض فاحبسوا نساءكم».

وقال في التفسير الوسيط: ﴿من نفس واحدة﴾ هي نفس آدم عليه السلام وليس هناك سوى آدم واحد، وهذا ما عليه جمهور المحدثين والفقهاء. ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها: حواء.

ويقول ابن القيم في كتابه روضة المحبين ص٨٦: قول اللّه تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ...﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعل علة السكون أنها منه.

أردنا معرفة تعداد سكان الأرض في القرن السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا. ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلا بد أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قول الله جلّ وعلا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ومن معجزات آدم عليه السلام أن الله تعالى أسجد له ملائكته

قصة سجود الملائكة لآدم أثارت خلافاً وجدلاً بين العلماء، إذ كيف يتم السجود لغير الله؟ قال الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

قال بعض العلماء: إن أمر الله بالسجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السجود الفعلي، لأن السجود لغير الله منهي عنه[١].

ولكن السجود هنا لا بد أن يؤخذ بمعنى السجود. لماذا؟ لأن الملائكة لم تسجد لآدم، وإنما سجدت لأمر الله بالسجود لآدم، تماماً كمسألة القبلة عندما أمرنا الله أن نتجه في الصلاة إلى المسجد الأقصى. لم يكن المسلمون يسجدون

---

(١) قال الماوردي: اختلف أهل التأويل في أمره الملائكة بالسجود لآدم على قولين:
أحدهما: أنه أمرهم بالسجود له تكرمة وتعظيماً لشأنه.
والثاني: أنه جعله قبلة لهم فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم وفيه ضرب من التعظيم وأصل السجود الخضوع والتطامن، قال الشاعر:

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجد للحوافر

وسمي سجود الصلاة سجوداً لما فيه من الخضوع والتطامن، فسجد الملائكة لآدم طاعة لأمر الله تعالى، إلا إبليس أبى أن يسجد له حسداً واستكباراً.

تفسير الماوردي [١/ ١٠١، ١٠٢]

قلت في معنى التطامن: ورد في أمثال العرب: إذا رأيت الرياح عاصفاً فتطامن، إذا رأيت الأمر عالياً فاخضع له «غاية النفع لابن رجب بتحقيق الشيخ أشرف عبد المقصود ص٢٨» وفي لسان العرب [١٣/ ٢٦٨] يقال: تطامن ظهره إذا حنى ظهره، بغير همز لأن الهمزة في اطمأن أدخلت فيها حذار الجمع بين الساكنين وفي معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني [٣١٧]: اطمأن وتطامن يتقاربان لفظاً ومعنى.

للمسجد الأقصى، ولكن لأمر الله في الاتجاه إليه، فلما تغيّر الأمر وأصبحت الكعبة هي القبلة اتجه المسلمون إلى الكعبة، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها، ولكن لأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود للكعبة.

إذن.. فالكعبة نفسها بدون أمر الله لا يسجد لها أحد، وآدم بدون أمر الله لم يكن ليسجد له أحد، يأتي بعض الناس ليقولوا: لا يُسجد إلا لله. نقول لهم: نعم.. ولكن لا يُسجد أيضاً إلا لأمر الله تعالى، والله سبحانه وتعالى حين قال: اسجدوا.. سجدنا طاعة لأمر الله، وليس للمسجود له في ذاته. ولذلك فإن الملائكة لم يسجدوا لآدم لذاته، وإنما سجدوا لأمر خالق آدم؛ ولذلك في قصة يوسف عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[1] [يوسف: ١٠٠]. السجود هنا لأمر الخالق، والعمل بالنية، والنية في سجود الملائكة لم تكن لعبادة آدم، ولكن لطاعة أمر الله بالسجود لآدم، وأمر الله لا بد أن يطاع.

إن الله سخر الكون كله لآدم وذريته، وسخر من الملائكة من يخدمون آدم وذريته، منهم المدبرات أمراً الذين يقومون بتنفيذ أوامر الله بالنسبة للإنسان، ومنهم الحفظة الذين يكتبون كل ما يحدث من البشر، فكأن سجود الملائكة هو سجود ألفة ومعرفة، والذين سجدوا هم الموكلون لخدمة الإنسان في الأرض، أما الملائكة العالون المقربون إلى الله فإنهم لم يسجدوا، بدليل قول الله سبحانه وتعالى لإبليس حينما رفض السجود: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] أي من الملائكة العالين الذين لم يشملهم أمر السجود، إنما

---

(١) قال الماوردي في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له. قال قتادة: وكان السجود تحية من قبلكم وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، وقال الحسن: بل أمرهم الله تعالى بالسجود له لتأويل الرؤيا، وقال محمد بن إسحاق: سجد له أبواه وإخوته الأحد عشر.

والقول الثاني: أنهم سجدوا لله عز وجل، قاله ابن عباس وكان يوسف في جهة القبلة، فاستقبلوه بسجود، وكان سجودهم شكراً، ويكون معنى قوله: ﴿وَخَرُّوا۟﴾ أي سقطوا كما قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي سقط.

والقول الثالث: أن السجود هاهنا الخضوع والتذلل، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿خَرُّوا۟﴾ أي بدروا. تفسير الماوردي [٣/ ٨٢].

سجدت الملائكة الذين سيخدمون آدم، فلكل ظاهرة من ظواهر الكون ملك يختص بها. وعلى أية حال ودون الدخول في جدل لا يفيد، الملائكة سجدوا لأمر الله، ولم يسجدوا لذات آدم، والسجود لم يكن عبادة لآدم، ولكنه كان عبادة لله بإطاعة أوامره، ولهذا كان السجود لله.

طُرد إبليس من الجنة لتكبره ورفضه السجود لآدم عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وحين يقول الحق: إن إبليس لم يكن من الساجدين، فهذا دليل على أن إبليس دخل في أمر السجود، إذ كيف يقول الحق: إن إبليس لم يكن من الساجدين، وأمر السجود لم يشمله؟. لا بد أن الأمر قد شمل إبليس، وما دام هنا استثناء بـ﴿إِلَّآ﴾ فمعنى ذلك أنه رفض أمر السجود، ولكننا فهمنا أن الأمر للملائكة، فهل إبليس من الملائكة حتى يشمله أمر السجود؟. نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قد أوضح ذلك لنا في سورة الكهف في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ فقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أخرجه من جنس الملائكة. وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تأكيد لأن إبليس من الجن؛ لأن الجن كالإنسان مخلوق له اختيار، يستطيع أن يطيع، ويستطيع أن يعصي. وما دام له اختيار فإنه ليس من الملائكة؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيار، فهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهكذا نجد أن قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: ١١]. لا يدلُّ على أن إبليس من الملائكة؛ لأن الملائكة لا يستطيعون المعصية.

بعض الناس قد يفهم خطأ من هذه الآية أن إبليس كان من الملائكة، ولكننا لا بد أن نفهم هذه الآية في ضوء قول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، فإن هذه الآية تعطينا حكماً جازماً بأن إبليس كان من الجن.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة ليس لهم اختيار؛ ولذلك فإن الإنس أو الجن الذي يكون قادراً على المعصية أو الطاعة، ثم يأتي الله طواعية واختياراً

يكون في هذه الحالة أعلى منزلة من المَلَك؛ لذلك كانوا يسمون إبليس: طاووس الملائكة، لأنه كان يزهو في حضور الملائكة بإلزام نفسه بمنهج الله، فكان يزهو على الملائكة بأنه صالح أن يطيع أو أن يعصي ولكنه تميز بالطاعة، وهذا الغرور هو الذي أوقع إبليس في المعصية. وما دام إبليس قد تلقى أمر السجود؛ فلا بد أنه حضر البلاغ الأول حين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾، وسجد المفطورون على الطاعة، وهم الملائكة، وكان من المفروض أن يسارع في الامتثال لأمر الله أولئك الذين لهم اختيار على الطاعة أو المعصية، وهؤلاء قد يكونون أدنى خلقاً من حيث المادة من الملائكة، ولكنهم يكونون أكثر قربى إلى الله؛ لأنهم ألزموا أنفسهم بالطاعة اختياراً وحبًّا لله تعالى.

على أنه إذا وُجِّهَ الأمر للأعلى، فمن باب أولى أن يلتزم به الأدنى، فإذا كان الوزير ذاهباً لزيارة يتفقد فيها بعض الأعمال، فإن وكلاء الوزارة لا بد أن يكونوا هناك لاستقباله، إذن فالأمر يشملهم ولو لم ينص عليهم، أي عندما يقال: إن الوزير سيحضر فإن وكلاء الوزارة يحضرون تلقائياً. وهكذا إذا كان أمر السجود قد شمل الملائكة، وهم أعلى خلقاً في المادة إذ إنهم خلقوا من نور، فلا بد أن يشمل الجن الذي خلق من نار حتى ولو لم ينص عليه. ولكن ما دام إبليس من الجن، فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار ففسق عن أمر ربه.. لماذا؟ أخذته الكبرياء حتى في أمر الله، فجاء في القرآن: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١]، ثم يقول: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، استكباراً واستعلاءً على من خلقه.. أتوجد معصية أكبر من ذلك؟!

على أن العلماء قالوا: إن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ معناه: ما منعك أن تترك السجود، أي: أن إبليس سجد ثم ترك السجود، ذلك أن التعبير كان من المقدر إذا أردنا نفي السجود أن يقال: وما منعك أن تسجد، ولكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ لا ينفي أنه سجد.

نقول: إن قول الله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ جاء في سورة [ص] وفي سورة الأعراف: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وحاول العلماء أن يزيلوا هذا الاختلاف فقالوا: «أن» زائدة، ولكن هذا الكلام نحن نرفضه؛ لأن القرآن كلام الله ليس فيه زائد ولا ناقص. ولكننا إذا أردنا أن نعرف، فلا بد أن نعود إلى استعمالات اللفظ الحقيقية، منع، ضد: أعطى، ويقال: حصن منيع، ورجل منيع، أي: فيه مناعة أن يعيبه

فسادٌ من الغير، أي: أن منع تستعمل ضد أعطى، وبمعنى لا يقدر عليه أحد، كما يقال: حصن منيع على الأعداء. والذي لا يفعل ما يؤمر به إما أن تكون هناك قوة أخرى جاءت فمنعته، وإما امتنع هو باختيار نفسه.

وبذلك يكون معنى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾، أي كانت عندك نية السجود ولكن قوة منعتك. ولذلك فإني أسألك ما هي هذه القوة التي منعتك من السجود، ولكن اللّه سبحانه وتعالى جاء في القرآن الكريم بالقول الذي يجعلنا نتأكد من أن غرور إبليس هو الذي منعه من السجود، أي أنه اختار عدم السجود برضاه، فإبليس لم يُمنع من السجود، ولكن غروره هو الذي قاده لئلاً يسجد. كأن كانت عنده نية للسجود فجاءت قوة ومنعته أن يفعل، ولكن المنع إما أن يكون قهراً، وإما أن يكون عن اقتناع، أي أن «منع» قد تأتي على أساس أنه امتنع عن السجود، وهناك ممنوع وممتنع، الممنوع أنه كان يريد أن يسجد فمُنع، والممتنع هو الذي امتنع من نفسه ولم يمنعه أحد. والمعنى في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: من الذي حجز بينك وبين السجود؟ ولا توجد «ألاّ» زائدة أو «ألاّ» صلة، بل إنها لتؤكد لنا المعنى بأن إبليس امتنع عن السجود من نفسه دون أن تقهره قوة على الامتناع وقول اللّه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، دليل قاطع على أن أمر السجود يشمل إبليس، وإلا ما قال له اللّه سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ فكأن إبليس كان يدخل في الأمر الذي صدر للملائكة بالسجود.

جاء الرد من إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولكن الحق تبارك وتعالى لم يسأل إبليس: ما هي منزلتك بالنسبة لآدم، ولكنه سأله ما منعك؟. وكان الجواب يقتضي أن يقول: منعت قهراً، أو أنا ممتنع عن السجود، ولكنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ فكأن إبليس كان يبحث في ذهنه عن مبرر لعدم السجود. وما دام زعم أنه خير منه فكأنه هو الأعلى، ولا يصح أن يسجد للأدنى، لذلك قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فكأن النار لها علو على الطين، ولكن اللّه سبحانه وتعالى لا يفضل الأجناس بهذا المنطق، فكل جنس خلقه اللّه له دوره، النار لها دور، والطين له دور؛ والخير في كل جنس يأتي في أن كل جنس يؤدي مهمته التي خلق من أجلها، لذلك لا تقل: إن هذا خير من هذا، ولكن قل: عمل هذا خير من عمل هذا، فكل شيء في الوجود حين يؤدي المراد منه يكون خيراً. ولذلك لا نقول لعود الحديد: إنه مستقيم، ونقول للخطاف: إنه أعوج؛ لأن مهمة الخطاف في أنه أعوج، فلولا عوجه ما استطاع أن يؤدي مهمته.

وعندما قال إبليس: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾، كان هذا كبراً منه ومعاندةً؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو أعلم بخلقه. ولكن إبليس رد الأمر، وكأنه يعدل على اللَّه تعالى، ويقول: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾، فكيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى؟ وهذا معاندة وكبر وكفر وغرور.

وهكذا أخذ الكبر من نفس إبليس درجة جعلته يعتقد ـ والعياذ باللَّه ـ أنه أعلم من الحق سبحانه وتعالى، وأن من حقه أن يعدل الأمر على اللَّه، ويخبره بما يجب أن يفعل، ولم يكن جزاء لهذه المعصية إلا الطرد من رحمة اللَّه. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ ﴾ والهبوط معناه الانتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى. وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك أن الجنة التي وجد فيها آدم وإبليس كانت في أعلى عليين. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ فَاهْبِطُوا ﴾ ولكننا نقول: إن الهبوط لا يستدعي مكاناً أعلى ومكاناً أسفل، وفرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة؛ لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبني إسرائيل: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ [البقرة: ٦١]. لم يكن بنو إسرائيل يعيشون في مكان في السماء، بل كانوا فوق الأرض، وعندما قال اللَّه تعالى لنوح: ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٨] كان يعني الهبوط من السفينة، ولا يقتضي ذلك النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى.

وعلى أية حال فإن الهبوط قد يكون من مكان إلى مكان، أو من مكانة إلى مكانة، فكأن إبليس كان في حضرة الملائكة عندما ألزم نفسه بالطاعة، ولَمَّا استكبر وأبى أنزله اللَّه من مكانه الذي كان فيه إلى أسفل السافلين.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣] يعطينا حيثية طرد إبليس من رحمته، فإبليس قد تكبر على أمر اللَّه، وما دام قد تكبر على أمر اللَّه، فهو ليس أهلاً لأي مكانة عالية، فكأن طاعة إبليس قبل معصية السجود هي التي أعطته مكانة عالية، ومعصية إبليس في أمر السجود هي التي جعلته في أسفل السافلين.

ذن.. ليس منا من له منزلة عالية بذاته، ولكن العمل والطاعة هما اللذان يعطيان الإنسان علوًّا عند اللَّه، والمعصية هي التي تنحدر به إلى المنزلة الدنيا، وفي هذا حكمة من الحق سبحانه وتعالى، فالجان لأنه مخلوق من نار، والنار من خواصها السرعة واختراق الحواجز والنفاذ من الجدران والنفاذ حتى من جسم الإنسان. وفي الحديث: «**إن الشيطان يجري من ابن**

آدم مجرى الدم»[١] تلك طبيعة المادة التي خلق منها الجان، مادة النار، فأنت إذا جلست خلف جدار، ووضعت في الناحية الأخرى تفاحة، لا تستطيع التفاحة أن تتعدى بشكلها ولونها وطعمها الجدار، وتنفذ إليك، ولكن إذا كانت هناك نار خلف الجدار فإن حرارتها وإشعاعها يتعديان لك، لأن طبيعتها الشفافية.

ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطي درساً للجن والإنس معاً، فقال: لا تعتقدوا أن العنصر الذي خلقتم منه يعطيكم تمييزاً؛ بل إرادة الخالق وحدها هي التي تعطي هذا التمييز، ولذلك جعل الله الجن خدماً لسليمان عليه السلام، وهو بشر، ثم جاء بالذي عنده علم من الكتاب فجعله أعلى، ولذلك قال عفريت من الجن[٢] لسليمان عليه السلام عند الحديث عن إحضار عرش بلقيس: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، والعفريت من الجن هو القوي القادر منهم؛ لأن الجن يتفاوتون في الخلق، منهم الضعيف ومنهم القوي، وهكذا تصدَّى أقوى الجن ليقول: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] ومقام سليمان قد يكون ساعة أو ساعتين أو أكثر.

قال الذي عنده علم من الكتاب[٣]، وهو إنسان مخلوق من طين؟ ﴿

---

(١) أخرجه مسلم [٢١٧٤] وأبو داود [٤٧١٩] وأحمد [٣/ ١٥٦] عن أنس، وأخرجه البخاري [٢٠٣٨، ٣٢٨١] ومسلم [٢١٧٥] وأبو داود [٢٤٧٠] وابن ماجه [١٧٧٩] وصححه الألباني عن صفية بنت حُيي. وأحمد [٦/ ٣٣٧] بزيادة.. وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شراً، أو قال شيئاً.

(٢) ذكر النحاس عن ابن منبه أنه: كودن. ونقل القرطبي عن السهيلي أنه ذكوان. الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٩٦.

(٣) قيل: هو آصف بن برخيا كاتبُ سليمان عليه السلام وابن خالته قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل اسمه (أسطوم). والعلم من الكتاب هو الاسم الأعظم. وهو قول ابن عباس والجمهور.

زاد المسير [٦/ ١٧٥].

وقيل: الكتاب المنزل بالشرائع، وهو قول لابن عباس أيضاً. وقيل: هو جبريل، والكتاب: اللوح المحفوظ حكاه ابن الجوزي عن الثعلبي.

زاد المسير [٦/ ١٧٥].

وقيل: هو الخضر واستغربه ابن كثير جداً لأنه من رواية ابن لهيعة.

[تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤]. =

﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وكأنه قبل أن يكمل هذه الجملة كان عرش بلقيس ملكة سبأ قد انتقل من اليمن إلى بيت المقدس، ولذلك يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٤٠]، أي: أن العملية كلها تمت في أقل من الوقت الذي نطق فيه مَنْ عنده علم من الكتاب بهذه الجملة.

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لا أحد من الجن أو الإنس له منزلة بذاته، أو له تميُّز بذاته، ولكن بعمله.

= ونقل ابن الجوزي عن محمد بن المنكدر قوله: إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه كان قال للعفريت: أنا أريك أبرع مما قلت.

[زاد المسير ٦/ ١٧٥]. وانظر غرر التبيان [٣٨٢ ـ ٣٨٣]

معجزة
نوح عليه السلام

معجزة نوح عليه السلام

لقد أوحى الله لنوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن من قبل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١) [هود: ٣٦]، فلا تحزن لما فعلوه معك؛ فقد كفروا بالله

---

(١) قال أبو حيان: قرأ الجمهور ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعول، أنه بفتح الهمزة، وقرأ أبو البر هشيم: ﴿وَأَوْحَى﴾ مبنياً للفاعل، إنه بكسر الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين، وعلى إجراء ﴿أُوحِيَ﴾ مجرى قال على مذهب الكوفيين، أيأسه الله من إيمانهم، وأنه صار كالمستحيل عقلاً بإخباره تعالى عنهم.

البحر المحيط [٦/ ١٤٨، ١٤٩]

قال القرطبي: ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم، واستدامة كفرهم، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم.

قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيتين [نوح: ٢٦].

وقيل: إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً؛ فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه، فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائساً، أي حزيناً.

والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر:

وكم من خليلٍ أو حميم رُزِئته ... فلم أبتئس والرُّزءُ فيه جليلُ

يقال: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه. والابتئاس حزن في استكانة.

[تفسير القرطبي [٩/ ٢٩، ٣٠]

وقال ابن كثير: يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٥، ٤٢٦]

وقال كذلك: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] تسلية له =

الذي خلقهم ورزقهم، وهذا تسلية وتعزية من اللّه تعالى لعبده ورسوله نوح عليه السلام. ثم أعطى الحق سبحانه وتعالى أمره إلى نوح ليبني السفينة؛ قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(١) [هود: ٣٧].

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أمر نوحاً ببناء السفينة؛ لأنه سبحانه قدّر نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين.

إذن... فقد علم نوح في هذه اللحظة بإغراق الكافرين.

ونوحٌ يصنع السفينة من أخشاب الشجر، والسفينة كما قالوا: كان طولها

= عما كان منهم إليه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، أي: لا يسوءنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب.

قصص الأنبياء ابن كثير [٧٥]

(١) قال أبو عبيدة: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: واحد وجميع وهي السفينة والسُّفن مثل السلام واحدها السلامة، مثل نعام ونعامة، وقتاد وقَتادة.

مجاز القرآن [١/ ٢٨٨]

قال القرطبي: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك». ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا وحيث نراك. وقال الربيع بن أنس: بحفظنا إياك حفظ من يراك.

وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما: بحراستنا؛ والمعنى واحد، فعبر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير، كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزه عن الحواس والتشبيه والتكييف ولا رب غيره.

وقيل: المعنى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك، فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه.

وقيل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بعلمنا؛ قاله مقاتل، وقال الضحاك وسفيان: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بأمرنا.

وقيل: «بوحينا» وقيل: بمعونتنا لك على صنعها.

وقيل: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي على ما أوحينا إليك من صنعتها.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٠]

ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً[١]، وهو ارتفاع كبير لكي تسع كل المؤمنين، والحيوانات، ودواب الأرض وسباعها ووحوشها. وقيل: إن نوحاً استخدم أخشاب شجرة واحدة فقط ليصنع السفينة. ويتساءل بعض الناس: هل شجرة واحدة تكفي لصنع السفينة؟ نقول: من الممكن؛ إذا كانت زرعت من مدة طويلة؛ وعمر الشجر نعرفه من الحلقات أو الدوائر التي في جذعها، وكل دائرة أو حلقة تدل على عمرها.

والحقُّ سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . .﴾ أي أن الحق

---

(١) قال القرطبي: واختلفوا في طولها وعرضها؛ فعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعاً؛ وكانت من خشب الساج[١] وكذا قال الكلبي وقتادة وعكرمة كان طولها ثلاثمائة ذراع، والذراع إلى المنكب. قاله سلمان الفارسي. وقال الحسن البصري: إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع وحكاه الثعلبي في كتاب العرائس.

وروى علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها؟ فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح قال: فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن اللّه فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه، وقد شاب؛ فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا؛ بل مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شبت.

قال: أخبرنا عن سفينة نوح.

قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير.

وقال الكلبي فيما حكاه النقاش: ودخل الماء فيها أربعة أذرع، وكان لها ثلاثة أبواب؛ باب فيه السباع والطير، وباب فيه الوحش، وباب فيه الرجال والنساء.

ابن عباس: جعلها ثلاثة بطون؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب، والأوسط للطعام والشراب، وركب هو في البطن الأعلى، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس؛ وكان إبليس معهم في الكوثل[٢].

تفسير القرطبي [٩/ ٣١، ٣٢]

---

(١) السَّاج: خشب يُجلب من الهند، واحدته: ساجة. لسان العرب [٢/ ٣٠٣].

(٢) الكَوْثَل: مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم.

تبارك وتعالى سَيُلْهِمُ نوحاً بوحيه كيف تُصنع السفينة، ويعلمه كيفية صناعتها[1].

وهذا يعني: أنَّ نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن؛ ولكن اللَّه تبارك وتعالى هو الذي أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينة، أي ألقى في قلبه وفي عقله الخواطر التي تتيح له حسن صناعة السفينة.

اللَّه سبحانه وتعالى يقول لنبيه نوح عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي أن اللَّه تبارك وتعالى علَّم نوحاً بالوحي بناء السفن، وتكفَّل سبحانه برعايته وعنايته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ . . .﴾ أي أنهم سيهلكون بالغرق، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

كأن القوم الذين كانوا حول نوح ـ مؤمنين أو غير مؤمنين ـ لم يكونوا يعرفون لماذا يصنع السفينة.. بل إنهم تعجبوا من هذه المسألة، وكلما مر الذين كفروا على نوح ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾[2] أي: وكلما مر الكفار ورأوا نوحاً يصنع شيئاً غير معروف لديهم، أو شيئاً مستغرباً، فإنهم يسخرون منه.

والفلك يحتاج إلى ألواح، والخشب يتماسك بعضه مع بعض، ولم يكن هناك مسامير لتتم هذه العملية؛ ولكن اقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ

---

(١) أي واصنع الفلك الذي ستنجيك ومن آمن معك فيه، وأنت محروس ومراقب برعايتنا، أي إننا حافظوك في كل آن، فلا يمنعك من حفظنا مانع، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرضن لك خطأ في صنعته ولا في وصفه. ونحو الآية قوله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ وقوله لمحمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

تفسير المراغي [١٢/ ٣٤]

(٢) قال القرطبي: وفي سخريتهم منه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرون منه ويستهزءون به ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً.

الثاني: لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء! فعجبوا من قوله وسخروا منه.

قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٢، ٣٣]

أَلْوَحٍ وَدُسُرٍ﴾[1] [القمر: ١٣]. أي أنهم يربطون الألواح بالحبال. مثل الذي صنع من ورق البردي سفينة ليذهب بها إلى «أمريكا» كلها مربوطة بحبال مُحْكَم رباطها، فيأتي بأوراق البردي ويُحْكِمُ ربطها بعضها مع بعض؛ لكي يكون الرباط مُحْكَماً فلا يدخل الماء إلى السفينة ليغرقها.

اللّه سبحانه وتعالى علم نوحاً بأن يأتي بالخشب الجاف ويربطه بالحبال، وبعد ذلك عندما يكون الخشب في الماء يزداد حجمه فيسد المسام بدقة أكبر، مثل الذين يصنعون البراميل، ويضعون فيها الأشياء السائلة فلا ترشح من الخارج؛ لأن الخشب مدهون بالقطران الذي يسد المسام، والخشب هو المادة الوحيدة التي تتمدد بالبرودة؛ وكل شيء ما عدا الخشب يتمدد بالحرارة.

يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[2].

---

(١) ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرطبي وقتادة وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير قال: وواحدها دسار، ويقال: دسر كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حبك.

وقال مجاهد: «الدسر» أضلاع السفينة.

وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج.

وقال الضحاك: الدسر طرفاها وأصلها، وقال العوفي عن ابن عباس: هو كلكلها، أي صدرها.

تفسير ابن كثير [٤/ ٢٦٥، ٢٦٦]

(٢) قال القرطبي: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ غداً عند الغرق. والمراد بالسخرية هنا الاستجهال؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٣]

قال ابن كثير: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم.

قال ابن عطية: وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ قال الطبري: يريد في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل الكلام ـ بل هو الأرجح ـ أن يريد: إنا نسخر منكم الآن، أي نستجهلكم لعلمنا بما أنتم عليه من الغرر مع اللّه تعالى والكون بمدرج عذابه ثم جاء قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديداً.

المحرر الوجيز [٣/ ١٧٠]

إنهم يأخذون ما يصنع بظاهر الأشياء؛ لأن المكان ليس فيه بحر أو بحيرات تستخدم فيها السفينة؛ ولكنهم لا يعلمون ماذا سيحدث لهم. لقد سخروا من نوح وقالوا: بعد أن كان نبيًا أصبح نجاراً؛ لو كان نبيًا حقًا ما لجأ إلى هذا. لقد قالوا: ما فائدة هذه السفينة؟ لا يوجد بحر لتسير فيه!! ولم يعرفوا أن الماء هو الذي سيأتي إليها، وهو الذي سيرفعها، لم يعرفوا أن طوفاناً قادماً وأنهم مُغرقون.

وكذلك كلما مر عليه كبار قومه الذين لم يؤمنوا سخروا منه وجعلوه سخرية لهم، نبي يصنع سفينة وسط يابسة في مكان بعيد جداً عن البحر، كانوا يتعجبون منه ويسخرون ولكنه كان واثقاً بربه، يقول لهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. أي أنكم لا تعرفون سر بناء السفينة الآن، ولكنكم ستعرفونه في المستقبل.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن نوحاً صنع السفينة في عدة سنوات[1]، وأنهم بعد هذه السنوات سيعلمون؛ ولذلك عندما قال نوح عليه السلام: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. أي سيمر وقت طويل حتى تعلموه؛ ولكن ماذا تعلمون؟ ما الذي سوف تعلمونه؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ

---

(١) قال القرطبي: وقال القاضي أبو بكر بن العربي: لما استنقذ اللَّه سبحانه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى اللَّه إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۞ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٦، ٣٧].

قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: «بلى فإن ذلك بعيني» فأخذ القدوم فجعله بيده، وجعلت يده لا تخطئ، فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً؛ فعملها في أربعين سنة.

وحكى الثعلبي وأبو نصر القشيري عن ابن عباس قال: اتَّخذ نوح السفينة في سنتين.

زاد الثعلبي: وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى اللَّه إليه أن اصنعها كجؤجؤ الطائر.

وقال كعب: بناها في ثلاثين سنة، واللَّه أعلم.

المهدوي: وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها.

تفسير القرطبي [٩/ ٣١].

قال بعض السلف: أمره اللَّه تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبسه فكان ذلك في مائة سنة ونجرها في مائة سنة أخرى.

وقيل: في أربعين سنة واللَّه أعلم.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٦]

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . . .﴾[1] [هود: ٣٩] إذاً فالطوفان الذي سيأتي سيخزى هؤلاء الكفار؛ لأنهم كانوا يسخرون من نوح ويقولون كما قال غيرهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] وقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، عذاب دائم، عذاب لا يتركهم أبداً بل يقيم معهم إقامة دائمة؛ هو معهم كل الوقت، لا يستطيعون دفعه، ولا الفرار منه. فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2] [هود: ٤٠] ويُثار لدينا سؤال: كم مرحلةٍ تمت؟

---

(١) قال القرطبي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديد، و«من» متصلة بـ«سوف تعلمون» ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي يجب عليه وينزل به. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٣]

وقال ابن كثير: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر أبداً.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٦]

(٢) قال ابن الصمادح: «حتى إذا جاء أمرنا»: وَعْدنا بالطوفان.

مختصر تفسير الطبري [١/ ٢٨٧]

﴿وَفَارَ﴾ نبع، ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ قيل: وجه الأرض. وقيل: التنور الذي كان يخبز فيه، أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء فاركب السفينة، فإن تلك الآية آية هلاك قومك.

مختصر الطبري [١/ ٢٨٧]

وقوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني ذكراً وأنثى؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان. وقرأ حفص: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بتنوين: «كلٍّ» أي من كل شيء زوجين.

ويقال للاثنين: هما زوجان، في كل اثنين لا يستغني أحدهما عن صاحبه؛ فإن العرب تسمي كل واحد منهما زوجاً.

يقال: له زوجا نعل إذا كان له نعلان. وكذلك عنده زوجا حمام، وعليه زوجا قيود؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] ويقال للمرأة: هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجها. وقد يقال للاثنين: هما زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجاً قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] أي من كلّ لون وصنف وقال الأعشى:

وكل زوجٍ من الديباج يلبسه ... أبو قدامة محبوٌّ بذاك معًا =

الأولى: أمر من اللّه بصناعة الفلك.

= أراد كل ضرب ولون.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٤، ٣٥]

وقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم ممن لم يؤمن باللّه، فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة باللّه ورسوله.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٧]

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي من قومك. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام، وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر؛ بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها واللّه أعلم وأحكم.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٧]

وقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾، ﴿مَن﴾ في موضع نصب بالاستثناء ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم أي بالهلاك؛ وهو ابنه كنعان وامرأته واعلة كانا كافرين؛ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ قال الضحاك وابن جريج: أي احمل من آمن بي، أي من صدقك؛ فـ﴿مَن﴾ في موضع نصب بـ«احمل».

تفسير القرطبي [٩/ ٣٥]

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: آمن من قومه ثمانون إنساناً، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنائن له. ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل.

وورد في الخبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام امرأته في السفينة، فدعا نوح اللّه أن يغير نطفته فجاء بالسودان.

قال عطاء: ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام ويافث.

وقال الأعمش: كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين؛ وأسقط امرأة نوح. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعاً.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٥]

الثانية: تنفيذ نوح لأمر الله بأنه بدأ يصنع الفلك، واستغرقت صناعته سنوات طويلة.

الثانية: بعد أن يصبح الفلك جاهزاً ينتظر نوح إلى أن يأتي الطوفان.

إذاً.. فهي عدة مراحل استغرقت سنوات طويلة، تحمَّل فيها نوح سخرية الكفار منه، واتهامهم له بأنه ترك النبوة وأصبح نجاراً.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾(١) فَارَ يعني غلى، مثلما يقال:

---

(١) اختلف في التنور على أقوال سبعة:

الأول: أنه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة، وذلك أنه قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك.

الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنوراً من حجارة؛ وكان لحواء حتى صار لنوح؛ فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك.

وأنبع الله الماء من التنور، فعلمت به امرأته فقالت: يا نوح، فار الماء من التنور؛ فقال: جاء وعد ربي حقاً. هذا قول الحسن، وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس.

الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة؛ عن الحسن أيضاً.

الرابع: أنه طلوع الفجر، ونور الصبح؛ من قولهم: نور الفجر تنويراً؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الخامس: أنه مسجد الكوفة؛ قاله علي بن أبي طالب أيضاً؛ وقاله مجاهد.

قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي كندة. وكان فوران الماء منه عَلَماً لنوح، ودليلاً على هلاك قومه. قال الشاعر وهو أمية:

فار تنورهم وجاشَ بماءٍ صار فوق الجبال حتى علاها

السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة.

السابع: أنه العين التي بالجزيرة «عين الوردة» رواه عكرمة.

وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: «عين وردة» وقال ابن عباس أيضاً: فار تنور آدم بالهند.

قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله عزّ وجلّ أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفوران: الغليان.

والتنور: اسم أعجمي عرّبته العرب، وهو على بناء فعل، لأن أصل بنائه تَنر، وليس في كلام العرب نون قبل راء. =

فار الماء، أي غلى، والغليان هو أعلى سخونة للماء، والماء يكون فيه هواء، والدليل على ذلك أن السمك يتنفس منه؛ وعندما يغلي الماء تجد أن فقاقيع الهواء قد خرجت منه، وعندما تغادر فقاقيع الهواء الماء تحدث خلخلة فيه فيكون الماء ثقيلاً بعد أن تقذف النار بفقاقيع الهواء الموجودة فيه.

والتنور هو المكان الذي يخبزون فيه. الماء يخرج من التنور، معناه: أن الماء يخرج من مكان لا يتوقع أن يخرج منه؛ والتنور أو المخبز هو مكان تشتد فيه الحرارة، وتوقد فيه النار للخبيز، وكانت هذه هي العلامة التي أوحى بها اللّه سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام، فعندما يبدأ خروج الماء من مكان المخبز؛ يسرع نوح إلى الذين كتب اللّه لهم النجاة من المؤمنين ليركبوا السفينة معه، ويحمل فيها من كل زوجين اثنين من مخلوقات الأرض ولكن لماذا زوجين؟ لأن اللّه سبحانه وتعالى جعل التكاثر من ذكر وأنثى، فإذا نجا الذكور وحدهم انقرضوا

= وقيل: معنى ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم: «حمى الوطيس» إذا اشتدت الحرب. والوطيس التنور.

ويقال: «فارت قدر القوم» إذا اشتد حربهم؛ قال شاعرهم:

تركتم قِدْرَكم لا شيء فيها ... وقِدْرُ القوم حاميةً تَفُورُ

تفسير القرطبي [٩/ ٣٣، ٣٤]

قال ابن كثير: وأما قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءاً وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: التنور فلق الصبح وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه؛ والأول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة؛ وعن ابن عباس: عين بالهند، وعن قتادة: عين بالجزيرة يقال لها: عين الوردة، وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر اللّه نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فتعلق إبليس بذنبه، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح عليه السلام: مالك ويحك ادخل، فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة؛ وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٦، ٤٢٧]

بعد فترة ولم يحدث تكاثر، وإذا نجا الإناث وحدهم انقرضن أيضاً ولم يحدث تكاثر؛ وهؤلاء الذين حملهم نوح في سفينته عندما ينتهي الطوفان سينزلون إلى الأرض ويتكاثرون من جديد؛ حتى يعمروها مرة أخرى، فكأن وجود الزوجين ضرورة؛ لتعود الحياة وتعمر الأرض.

ولقد كان من اللازم أن تكون هناك علامة لنوح عليه السلام عندما يرى التنور يفور فيه الماء؛ ويقولون: إن أصل هذا التنور أو المخبز أن نوحاً كان يخبز فيه، وأن التنور كان مخبز نبي الله آدم عليه السلام.

والذي يهمنا أنه كانت توجد علامة بين نوح عليه السلام وبين ربه، يعرف بها قرب بداية الطوفان؛ وكان على نوح عندما يرى هذه العلامة أن يجمع من كل شيء زوجين، أي من كل ما تتطلبه حياة الناجين من المؤمنين؛ والناجون يحتاجون إلى أشياء كثيرة.. يحتاجون إلى أنعام وطير وهوام ووحوش وسباع.. بل هم محتاجون إلى خنزير أيضاً.

ولذلك عندما يقال: إذا كان لحم الخنزير محرماً فلماذا خلقه الله؟ نقول: إنه لم يُخلق ليؤكل؛ ولكن له مهام أخرى في الدنيا، مثل: تنقية الأرض من القاذورات الحاملة للجراثيم؛ بأكلها حتى لا تتعفن وتملأ الدنيا بالجراثيم والأمراض؛ ويقال: إنه عندما حمل نوح من كلٍّ زوجين اثنين، لم يكن الخنزير موجوداً معه على السفينة؛ وعندما خرجت من الراكبين في السفينة فضلاتهم، كانت الرائحة كريهة جداً لا يطيقونها، فأمر اللهُ سبحانه وتعالى نبيه نوحاً عليه السلام أن يضرب ذنب الفيل فلما ضربه وقع منه خنزير، هذا الخنزير راح يأكل الفضلات والقاذورات[1]،

---

(١) «فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد، فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة[1] فأقبلا على الفأر.

ساقه ابن كثير من حديث قال عنه: وقد ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير[2] أثراً غريباً من حديث علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم.. الحديث.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٦]

---

(١) السِّنَّارُ والسِّنَوْرُ: الهِرُّ، مشتق منه، وجمعه: السنانير [لسان العرب: ٤/ ٣٨١].

(٢) انظر [تفسير الطبري: ١٢/ ٣٥، ٣٦].

فقضى على الرائحة الكريهة في السفينة ونجا راكبوها من أمراض وجراثيم ربما كانت ستقضي عليهم، وخاصة أن الرحلة على ما تذكر كتب التاريخ والسير أنها قاربت السنة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[2] [هود: ٤١].

---

(١) قال ابن عطية: وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، وذكر أيضاً حديثاً عن النبي ﷺ: «أن نوحاً ركب في السفينة أول يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أرست على الجودي، فصام نوح ومن معه».

المحرر الوجيز [٣/ ١٧٥]

وقال البغوي: وروي أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب، وجرت بهم السفينة ستة أشهر، ومرت بالبيت فطافت به سبعاً وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء، فصام نوح، وأمر جميع من معه بالصوم شكراً لله عز وجل.

معالم التنزيل [٤/ ١٧٩]

(٢) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أمر بالركوب؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه، والركوب العلو على ظهر الشيء، ويقال: ركبه الدين. وفي الكلام حذف؛ أي اركبوا الماء في السفينة. وقيل: المعنى: اركبوها. و«في» للتأكيد كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]. وفائدة «في» أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها.

وقال الضحاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مجراها جرت، وإذا قال بسم الله مرساها رست. وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كريز عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [هود: ٤١]. وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لأهل السفينة.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٦، ٣٧] بتصرف

قال ابن كثير: يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه =

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده [٦٧٨١]، وابن السني في اليوم والليلة [٥٠٠]، وذكره الهيثمي في المجمع [١٠/ ١٣٥] وقال: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مغلس وهو ضعيف.
وأخرجه الطبراني في الكبير [١٢/ ١٢٦٦١] عن ابن عباس. وذكره الهيثمي في المجمع [١٠/ ١٣٥] وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك.

القول من نوح: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ هو أمر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح بأن يأمرهم أن يركبوا السفينة، والركوب أن يكون الراكب مستعلياً على ما يركبه، وتكون السفينة في خدمة من ركبوها، فكأن تسخير الله سبحانه وتعالى للسفينة كي تخدم من ركبها وتطيعه؛ ولكن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾، والركوب يكون على السفينة؛ ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن السفينة لم تصنع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها؛ ولكنها مصنوعة بأحدث نظام لصناعة السفن الآن؛ لذلك فإنهم يركبون فيها، لا يركبون عليها، ولم تكن من طابق واحد، ولكن كانت من عدة طوابق، لأنها تحمل خلقاً مختلفاً.. فيها حيوانات ووحوش وحشرات ودواب؛ وبشر وغير ذلك؛ ولا يمكن أن يركب هؤلاء مع بعضهم البعض.

إذاً.. فلا بد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كل جنس مع بعضه.

السفينة مصنوعة لكي تنجي الذين آمنوا؛ وتنجي معهم من كل أجناس الحياة على الأرض زوجين اثنين؛ وبما أنها مصنوعة لتنجيهم من الغرق، فلا بد أن تسير بمن فيها إلى مكان عال لا يصله الماء. إذاً.. فلا بد من الجريان بمن فيها، ولا بد من الرسو، ولذلك فجريانها ورسوها لا بد وأن يكونا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾. لأن الذين آمنوا مع نوح.. صحيح أنهم آمنوا؛ ولكنهم ليسوا ملائكة؛ بل هم بشر، وقد يكون منهم من أخطأ واستغفر، أو من آمن ولكن بإيمانه بعض النقص الذي لا ينقص أصل الإيمان؛ ولكن الله سبحانه وتعالى غفر لهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التي هي من اللمم بإيمانهم، ولم يأخذهم بذنوبهم.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[1] وهذا يدلنا

= في السفينة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٧]

(١) قال الزمخشري: ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ يريد موج الطوفان شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

الكشاف [٢/ ٢١٧]

وقال ابن كثير: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء، سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ • لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢] وقال=

على أنها مُسَيَّرَةٌ بقدرة اللّه سبحانه وتعالى؛ ولذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها اللّه سبحانه وتعالى بأنها في علوها وضخامتها كالجبال.. هذه الأمواج لا بد أن تُغرِق أضخم السفن وأقواها؛ لكنها لم تفعل شيئاً لسفينة نوح، فلم تضربها بقوة أو تقلبها، بل إن السفينة تجرى بسرعة عالية بين أمواج كالجبال؛ ولك أن تتخيل سفينة في بحر هائل بين أمواج كالجبال.. كيف يمكن أن تبحر؟! إذا لم تغرقها الأمواج، فإنها على الأقل لا تجعلها تسير بسرعة؛ ولكن لأن سفينة نوح تسير بأمر اللّه تبارك وتعالى، فإن هذه الأمواج لم تؤثر فيها.

ولقد نَفَذَ الماءُ أمرَ اللّه وأغرق الكافرين جميعاً بما فيهم ابن نوح الذي خالف أباه، رفض الإيمان(١)؛ ثم لما تم أمر اللّه تعالى وفقاً لما شاء وقدر سبحانه قال للأرض: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ...﴾(٢) [هود: ٤٤] البلع هو

= تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٥].

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٦]

(١) وذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

قال ابن كثير: هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق؛ لكفره ومخالفته أباه نبي اللّه نوحاً عليه السلام.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٩]

قال ابن كثير: وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث، وقيل: اسمه «كنعان» وكان كافراً عمل عملاً غير صالح، فخالف أباه في دينه، فهلك مع من هلك.

قصص الأنبياء [٨٢]

(٢) في لسان العرب: بلع الشيء بلعاً، وابتلعه وتبلعه: جرعه.

لسان العرب [٨/ ٢٠]

قال أبو حيان: البلع: معروف، والفعل منه بلع بكسر اللام وبفتحها لغتان حكاهما الكسائي والفراء، يبلع بلعاً، والبالوعة الموضع الذي يشرب الماء.

البحر المحيط [٦/ ١٥٤]=

مرور الشيء من الحلق ليسقط في الجوف، ويقال لك: إبلع ما في فمك؛ أي أدخله من الحلق إلى جوفك. والحق تبارك وتعالى وصف لنا الطوفان وكيف تم بأمر الله.. فقال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾[1] [القمر: ١١، ١٢]. هذه اللقطة، وهي كيفية حدوث الطوفان لم تأت في سورة هود مع بقية أحداث القصة لنعرف أن القرآن يكمل بعضه بعضاً، ففيما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة هود أعطانا وصفاً إجمالياً للأحداث، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أعطانا اللقطة إجمالية، ولم يقل لنا كيف حدث الطوفان.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ أي خذي الماء من السطح إلى جوفك، ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ أي امتنعي عن المطر. وهكذا يمتنع نزول المطر، وتبتلع

= قال الزمخشري: نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿ يَٰٓأَرْضُ ﴾ ﴿ وَيَٰسَمَآءُ ﴾، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ ﴿ أَقْلِعِى ﴾، من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليها كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمته وجلاله وثوابه وعقابه، وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تَحَتُّم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء.

الكشاف [٢/ ٢١٧، ٢١٨]

(١) قال الشوكاني: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي منصب انصباباً شديداً والهمر الصب بكثرة، يقال: همر الماء والدمع يهمر همراً وهموراً: إذا كثر.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، والأصل: فجرنا عيون الأرض.

﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قُضي عليهم، أي كائناً على حال قدرها الله وقضى بها، وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء.

قال قتادة: قدر لهم إذ كفروا أن يغرقوا.

فتح القدير [٥/ ١٢٢] بتصرف

الأرض الماء، فينتهي الطوفان[١]، لأنه لو عندنا مطر والبالوعة مسدودة فإن أول شيء نجعل البالوعة تعمل. ثم ندعو الله إذا اشتد المطر: فنقول: اللهم حوالينا ولا علينا[٢].

---

(١) قال ابن أبي الأصبع: قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

فأنت ترى إتيان هذه الجمل معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنه ـ سبحانه ـ بدأ بالأهم، إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها، ولا يتهيأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرها بالابتلاع، ثم علم ـ سبحانه ـ أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها، وربما كان ما ينزل من السماء مُخلفاً لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السماءَ بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين، ثم قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي هلك من قُدّر هلاكهُ، ونَجا من قُضِيَتْ نَجاته، وهذا كُنْهُ الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بد وأن تكون معلومة لأهل السفينة، ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها، وخروجهم منها موقوف على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواءُ السفينة على الجودِي، أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقراراً لا حركة معه، لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعدما ذكرنا، وقوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق، فدعا ـ سبحانه ـ على الهالكين، ووصفهم بالظلم احتراساً من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كلّ ما تقدم، والله أعلم.

تحرير التحرير [٢٢٥، ٢٢٦]

(٢) عن أنس بن مالك: أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وِجَاهَ المنبرِ ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السُبُلُ، فادعُ الله يغيثُنا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللهم اسقِنا، اللهم اسقِنا». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعةً ولا شيئاً، وما بيننا وبين سَلْعٍ من بيت ولا دار. قال: فطَلعَتْ من ورائه سحابة مثلُ الترس. فلما توسَّطت السماء انتَشرت، ثم أمطرت. قال: والله ما رأينا الشمس ستاً قائماً فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السُبل، فادعُ اللهُ يمسِكْها. قال: فرفع رسول=

وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ (١). مادة غاض تستعمل لازمة وتستعمل متعدية.. أي تقول: غاض الماء، وغاض الله الماء.. يصح الاثنان؛ ولكن الحق سبحانه عندما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ وبناها للمجهول. من الذي غوض الماء؟ الله سبحانه وتعالى. ثم: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾. قضى أمر ماذا؟ أمر الله في إهلاك الكافرين.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ (٢)، أي استوت السفينة على الجبل، والجودِي هذا

= الله ﷺ يديه. قال: «اللهم حوالَيْنا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر».

قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس.

أخرجه البخاري [١٠١٣] واللفظ له، ومسلم [٨٩٧/ ٩]

(١) قال أبو عبيدة: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ غاضت الأرض والماء، وغاض يغيض، أي: ذهب وقلّ.

مجاز القرآن [١/ ٢٨٩]

وقال الراغب الأصفهاني: ﴿وَغِيضَ﴾ غاضَ الشيءُ وغاضَه غيرُهُ نحو نَقَصَ ونقصه غَيْرُهُ، قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: تفسده الأرحام، فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض، والغيضة المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه، وليلةٌ غائضة أي: مظلمةٌ.

المفردات في غريب القرآن [٥/ ٣٦٨]

ومن شواهد الإشارة في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فإنه سبحانه أشار بهاتين اللفظتين إلى انقطاع مادة الماء من مطر السماء ونبع الأرض، وذهاب الماء الذي كان حاصلاً على وجه الأرض قبل الإخبار. إذ لو لم يكن ذلك لما غاض الماءُ.

تحرير التحبير [٢٠٢]

(٢) قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾. فإن حقيقة ذلك وجلست على هذا المكان، فعدل عن لفظ المعنى الخاص به إلى لفظ هو رِدْفه، وإنما عدل عن لفظ الحقيقة لما في الاستواء الذي هو لفظ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من قولك: جلست، أو قعدت أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة إذ كان المراد ـ والله أعلم ـ الإخبار بنفي الأسباب الموجبة خوف أهل السفينة من السفينة في حالتي حركتها وسكونها. وذلك لا يحصل حتى يفهم السامع أنها جلست جلوساً متمكناً لا ميل فيه يوجب الخوف، ولا يحصل إلا بلفظ الاستواء دون غيره.

تحرير التحبير [٢٠٧]

جبل قرب الموصل ناحية الكوفة في العراق[1] . . . ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2] . أي أن القوم الظالمين ابتعدوا بعداً نهائياً عن الإفساد في

(١) اسم جبل، قال زيد بن عمرو بن نُفيل العدويُّ:

وقلبنا سَبْح الجُودِيُّ والجمُدُ

مجاز القرآن [١/ ٢٩٠]

وقال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو للّه عزّ وجلّ فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام.

وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها.

قال قتادة: قد أبقى اللّه سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة؛ عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً.

وقال الضحاك: الجودِي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٨]

(٢) أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة اللّه، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٢٨]

قال ابن أبي الأصبع: وما رأيت في جميع ما استقريت من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب اللّه تعالى: استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهي المناسبة التامة بين ﴿أَقْلِعِى﴾ و﴿ٱبْلَعِى﴾، والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في قوله: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ فإن المراد ـ واللّه أعلم ـ يا مطر السماء، والاستعارة في قوله: ﴿أَقْلِعِى﴾، والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة، والتمثيل في قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد عن لفظ المعنى الموضوع له، والإرداف في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان، وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا مَيْلَ، بلفظ قريب من لفظ المعنى، والتعليل: لأن غيض الماء علّة الاستواء، وصحة التقسيم إذ استوعب ـ سبحانه ـ أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهرها. والاحتراس في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ الدعاءُ يشعر بأنهم مستحقو الهلاك احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحق ومن لا يستحق فتأكد بالدعاء على الهالكين لكونهم مستحقين ذلك، والإيضاح في قوله: «القوم» ليتبين لهم أن القوم هم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة عليها، حيث قال=

الأرض، فهم ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم، إذاً ابتعد القوم الظالمون الذين كفروا برسالة نوح.. عن الإفساد في الأرض نهائياً، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون[١]؛ ولكن هل هؤلاء وذريتهم سيظلون مؤمنين؟ أم ستدخل الغفلة إلى قلوب الذرية فيشركون ويكفرون ويفسدون في الأرض؟

بالطبع كما نعلم من القرآن الكريم.. فإن الذرية ستعود إلى الكفر والظلم[٢]

= تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾. وفي قوله قبل ذلك: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

فأتى سبحانه في آخر هذه الآية بلفظ: ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ التي الألف واللام فيها للعهد؛ ليبين أنهم القوم الذين سبق ذكرهم ووصفهم بالظلم كما وصفهم في أول الكلام بالظلم، وذلك مما يوضح المعنى ويبينه، فعلم أن لفظة القوم هاهنا ليست فضلة في الكلام، وأنها يحصل بسقوطها لبس في المعنى.

تحرير التحبير [٦١١ ـ ٦١٣]

(١) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

قال البغوي: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ هذا ابتداء، أي: أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

تفسير معالم التنزيل [٤/ ١٨٢]

(٢) قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٥٨ ـ ٦٠] يستعرض السياق أولئك الأنبياء، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركي العرب أو من مشركي بني إسرائيل.. فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق بعيد بين السلف والخلف.

والسياق يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية «من ذرية آدم. وممن حملنا مع نوح». «ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل». فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين: يعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل. وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين.

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم.. صفتهم البارزة: «إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً». فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج=

فيبعث اللّه رسولاً جديداً ليعيدهم إلى الإيمان، ويهلك اللّه سبحانه وتعالى الكافرين، وهذه عملية متكررة سببها الغفلة وعبادة الدنيا، وطمع الإنسان ونسيانه، فلو أن العذاب كان مشهوداً لامتنعت المعصية تماماً من الأرض. فلو أنك جئت بأجمل نساء الدنيا، وجئت بشاب في قمة شبابه وحيويته ثم قلت له: سنجعلك تقضي الليلة مع هذه المرأة تتمتع بها ما تشاء، ثم فتحنا له باباً صغيراً فرأى جهنم، وقلنا له: بعد أن تقضي ليلتك كما تريد سنلقي بك في هذه النار لتبقى خالداً فيها.. أكان يُقبل على هذه المرأة؟.. طبعاً لا؛ بل سيفر منها؛ ولكن لأن العذاب محجوب عنا فنحن في غفلة، نسأل اللّه أن يتداركنا برحمته وعفوه.

= مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سُجّداً وبكياً.

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر اللّه.. خلف من بعدهم خلف بعيدون عن اللّه «أضاعوا الصلاة» فتركوها وجحدوها «واتبعوا الشهوات» واستغرقوا فيها. فما أشد المفارقة، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء؟

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين. يتهددهم بالضلال والهلاك: «فسوف يلقون غياً» والغيُّ الشرود والضلال، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك. ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمى: «إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً».

في ظلال القرآن [٤/ ٢٣١٤] بتصرف

معجزة
هود عليه السلام

معجزة هود عليه السلام

نبي اللَّه هود عليه السلام بعد أن ظل يدعو قومه ويرغبهم في الإيمان باللَّه تعالى ما آمن معه إلا قليل، ليس هذا فحسب، بل إن قومه تطاولوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[1] [هود: ٥٤، ٥٥].

نبي اللَّه هود: أشهد اللَّه وأشهدهم بأنه بريء مما يشركون من دون اللَّه، ثم تحداهم فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[2]. وهذه هي معجزة هود. أنه تحداهم وهو واحد، وهم كثرة طاغية متجبرة، وقال لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، وأنا معي قلة

---

(١) قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ﴾ أي: ما نقول في سبب مخالفتك إيانا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون لسبّك إيّاها، فالذي تُظهر من عيبها لما لحق عقلك من التغيير.

قال ابن قتيبة: يقال: عراني كذا، واعتراني: إذا ألم بي. ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك: عارٍ، ومنه قول النابغة:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي ... على خوف تظن بي الظنون

زاد المسير [٤/ ٩٥]

وقال ابن كثير: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٣١]

(٢) قال أبو جعفر النحاس: وهذا من علامات النبوة، أن يكون الرسولُ وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، وكذلك قال النبي ﷺ لقريش، وقال نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس: ٧١].

معاني القرآن الكريم [٣/ ٣٥٨]

وقال ابن كثير: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥] أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: طرفة عين.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٣١]

ضعيفة. وأنتم أقوياء جبابرة. ورغم هذا فلن تستطيعوا أن تمسوني بسوء.

معجزة هود: في أنه تحدى. ولا يوجد أحد يجازف بحياته وحياة المؤمنين بكلمة؛ ولكنه قال لهم: اقتلوني ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون. وهود في هذا مستند إلى قوة اللَّه سبحانه وتعالى وقدرته، فهو سبحانه الذي يستطيع أن يحميه لأنه القادر القهار[1]، ولا إله إلا هو. فلا يوجد إله آخر. ولذلك قال هود كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[2] [هود: ٥٦].

هود قال لقومه إنه توكَّل على اللَّه الذي لن يمكِّن الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم منه. وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ معناها كل ما يدب على الأرض، وله حركة، اللَّه آخذ بناصيته، والناصية هي مقدم الرأس والشعر الأمامي منه. فعندما تريد أن تهين أحداً تمسكه من مقدم رأسه[3]؛ ولذلك يقول الحق

---

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالي: القادر: هو الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وليس من شرطه أن يشاء لا محالة، فإن اللَّه تعالى قادر على إقامة القيامة الآن؛ لأنه لو شاء أقامها فإن كان لا يقيمها لأنه لم يشأها، ولا يشاؤها لما جرى في سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها، فذلك لا يقدح في القدرة.
والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود اختراعاً ينفرد به، ويستغني فيه عن معاونة غيره، وهو اللَّه تعالى، وأما العبد فله قدرة على الجملة لكنها ناقصة، إذ لا يتناول إلا بعض الممكنات، ولا يصلح للاختراع.
وقال رحمة اللَّه عليه: القهار: هو الذي يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه، فيقهرهم بالإماتة والإذلال.

المقصد الأسنى شرح أسماء اللَّه الحسنى [٧١]

(٢) ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: يقهرها ويذلُّها بالمُلْكِ والسُّلطان وأصل هذا: أن من أخذت بناصيته فقد قهرته وأذْلَلْته، ومنه قيل في الدعاء: «ناصيتي بيدك»[1] أي أنت مالك لي وقاهرٌ.

تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة [١٨١]

وقال ابن كثير: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه على صراط مستقيم.

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٣١]

(٣) قال الراغب الأصفهاني: الناصية: قُصاصُ الشعر، ونصوت فلاناً وانتصيته وناصيته=

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة [٣٣٩] عن أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه، وذكره النووي في كتاب الأذكار [٣٧٠].

سبحانه وتعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[1] [الرحمن: ٤١]. فالناصية هي مكان الشرف، ومركز الفكر والعقل في مقدمة الرأس.. وذلك حتى يعرف الكفار أنهم لن يقدروا على هود، ولا بقوة مخلوقات اللّه في الأرض. كأن يسلطوا عليه الحيوانات المتوحشة، أو الحيات، أو الثعابين، أو الضباع أو غير ذلك؛ حتى يقتلوه. فيرد عليهم أن كل ما يدب على الأرض خاضع للّه سبحانه وتعالى، لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا بإذن اللّه تعالى وقدره، فلن تطيعكم هذه الدواب وتعتدي على نبي من أنبياء اللّه.

= أخذتُ بناصيته، وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي متمكن منها.

المفردات في غريب القرآن [٤٩٦]

قال ابن الجوزي: فإن قيل: لِمَ خصَّ الناصية؟ فالجواب: أن الناصية هي شعر مقدم الرأس، فإذا أخذت بها من شخص فقد ملكت سائر بدنه، وذلّ لك.

زاد المسير [٤/ ٩٥]

(١) قال ابن قتيبة: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] أي يُجَرُّونَ إلى النار بنواصيهم وأرجلهم.

تأويل مشكل القرآن [١٥٥]

معجزة
صالح عليه السلام

معجزة صالح عليه السلام

قال نبي الله صالح عليه السلام لقومه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤]. حينما يقال: هذه ناقة الله، فهنا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة، وأن الله استجاب لرسوله، وأعطاه المعجزة التي طلبوها. إنهم قالوا: إن كنت رسولاً حقًا، فَأْتِ لنا من هذه الصخرة بناقة[1]. وسبب طلبهم الناقة من

(١) قال ابن جرير الطبري: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ حجة ودلالة على ما أدعوكم إليه.
مختصر تفسير الطبري [١/٢٩]

﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾: النوق وغيرها من المخلوقات كلها لله، ولكن هذه الناقة لما كانت آيةً من آيات الله تعالى، ومعجزة لنبيه صالح عليه السلام، خصت بالإضافة إلى الله تعالى، كما قال ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾: وذلك أن ثمود قالوا لصالح إن أردت أن نؤمن لك فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عُشَراءَ تبرك بين أيدينا، وتمخض كما تمخض النوق الحوامل، وتنتج سقباً منها[1]. فصلى صالح ركعتين ودعا الله تعالى فانشقت الصخرة عن ناقة عظيمة الخلق، حسنة الصورة فبركت بين أيديهم وتمخضت، ونتجت سقباً مثل أمه في عظم الخلقة، فقال لهم صالح عن الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] فاقتسموا الماء، فكان لهم يوم وللناقة يوم، فإذا كان يوم الناقة توسعوا في اللبن ما شاءوا، وإذا كان يومهم لم يكن للناقة ماء، فنفسوا عليها بشرب يومها، وتآمروا في عقرها، فقال لهم صالح: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، فانبعث أشقاها، وعقرها بأمر ثمودَ، فرفع السقب رأسه إلى السماء ورغا بحنين وأنين، فقال لهم صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم جاءهم العذاب في اليوم الرابع، وأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين وصارت ناقة الله مثلاً على وجه الدهر. وربما قيل لها: ناقة صالح، وصار عاقرُها مثلاً في الشقوة والشؤم، وهو أحمر ثمود، وصارت ثمود مثلاً في الفناء والهلاك.

ومن ظريف التمثيل بهذه القصة قول والي اليمامة في خطبته: أيها الناس لا تجترئوا على=

(١) العشراء من النوق: التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية، ومخضت الناقة تمخيضاً: أخذها الطلق. والسقب: ولد الناقة ساعة يولد.

الصخرة؛ أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٤٩].

ولقد قالوا له: نريد أن تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة. هم اقترحوا، واللَّه سبحانه وتعالى أجابهم، فانفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة، والناقة حامل على وفق ما طلبوها. لم يكن في استطاعتهم في هذه الحالة أن يكذبوا الآية التي حدثت أمامهم، لأنها رؤية عين.. رؤية يقين. فهم لا يستطيعون التكذيب لما حدث أمامهم، ولكنهم ينتقلون إلى الآية نفسها فيعقرونها، وهم يعتقدون أن هذا إبطال للمعجزة، لأن الناقة بعد أن عقروها لا تستطيع السير؛ فيقولون: هذه آية باطلة.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ساعة تسمع شيئاً منسوباً إلى اللَّه سبحانه وتعالى.. اعلم أن له عظمة من عظمة المضاف إليه[2]. عندما نقول

= اللَّه، فإنه لا يقر على المعاصي عبادَه، ولقد أهلك أمة عظيمة من أجل ناقةٍ قيمتها ثلاثمائة درهم؛ فَسُمِّي مُقَوِّم الناقة.

وقد أكثر الناس من ضرب المثل بهذه الناقة، ومن مليح ذلك قول بعضهم في العتاب والاقتضاء:

حوائج الناس كلها قُضيت ... وحاجتي لا أراك تقضيها

أناقة اللَّه حاجتي عُقِرَت ... أم نبت الحرف في حواشيها

وضرب بها ابن الرومي المثل فقال وهو يصف إنساناً بشدة الأكل:

شبه عصا موسى ولكنه ... لم يخلق اللَّهُ لها فاها

رفقاً بزاد القوم لا تُفنِه ... يا ناقةَ اللَّهِ وسُقيَاها

ثمار القلوب [٢٩/ ٣٠]

(١) قال ابن قتيبة: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي: أشرين بَطِرين.

تأويل مشكل القرآن [٤٩١]

وقال ابن كثير: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها.

قصص الأنبياء [١١٠]

(٢) قال الثعالبي: إن اللَّه لا يضاف إليه إلا العظيم من جميع الأشياء من الخير والشر أما الخير فقولهم: بيت اللَّه، وأهل اللَّه، وزوّار اللَّه، وكتاب اللَّه، وأرض اللَّه، وخليل اللَّه، وروح اللَّه، وأشباه ذلك. وأما الشر فكقولهم: دَعْه في لعنة اللَّه تعالى وسخطه وأليم عذابه، ودعه في نار اللَّه وسقره.

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب [٢٦]=

مثلاً: هذا بيت اللّه[١] . . فإن المعنى ينصرف إلى الكعبة، والمسجد بيت اللّه لأنه خصص له قطعة من الأرض، لا يتم عليها إلا ذكر اللّه وعبادته. ولذلك فهي أرض اللّه، خالصة لعبادة اللّه، ولا يزاول فيها أي عمل دنيوي؛ ولكن الفرق بين بيت اللّه في مكة وبين مساجد اللّه في الأرض، أن الكعبة هي بيت اللّه باختيار اللّه، والمساجد هي بيوت اللّه باختيار خلق اللّه، ولذلك كان بيت اللّه باختيار اللّه، قبلة لكل بيوت اللّه باختيار خلق اللّه.

فعندما نقول ناقة اللّه، فهي ناقة اللّه، وما دامت منسوبة إلى اللّه سبحانه وتعالى فإنها تأخذ العظمة المناسبة ويروى أن ابن أبي لهب، كان متزوجاً من بنت رسول اللّه ﷺ وعندما اشتد العِناد بين عدو اللّه أبي لهب والرسول ﷺ قال له أبوه: لا بد أن تطلق ابنة محمد، فطلقها، فدعا عليه رسول اللّه ﷺ فقال: «أكلك كلب من كلاب اللّه»[٢].

= قال ابن كثير: ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم، كقوله: بيت اللّه، وعبد اللّه.

قصص الأنبياء [١١٨]

(١) بيت اللّه كما أن أهل مكة أهل اللّه، والحجاج زوار اللّه، فالكعبة بيت اللّه الذي جعله اللّه مثابةً للناس، وحطة للخليل، وحلة للذبيح، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكعبة لأمته التي هي خير الأمم. وقد كانت العرب في الجاهلية لا تبنى بنياناً مربعاً تعظيماً للكعبة. وقد كانت تحلف ببيت اللّه كما قال زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجالٌ بنوه من قريش وجرهم

وقال النابغة:

فلا ورب الذي زرته حججاً ... وما هريق على الأنصاب من جسد

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب [١٦، ١٧]

(٢) قال أبو عبد اللّه: «كانت أم كلثوم يعني ابنة رسول اللّه ﷺ في الجاهلية تحت عتيبة بن أبي لهب، وكانت رقية تحت أخيه، عتبة بن أبي لهب، فلما أنزل اللّه عزّ وجلّ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ قال أبو لهب لابنيه: عتيبة، وعتبة: رأسي ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، وسأل النبي ﷺ عتبة طلاق رقية، وسألته رقية ذلك، وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية ـ وهي حمالة الحطب ـ: طلقها يا بني فإنها قد صبأت فطلقها، وطلق عتبة أم كلثوم، وجاء النبي ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم تسلط على رسول اللّه ﷺ فشق قميصه، فقال رسول اللّه ﷺ: أما إني أسأل اللّه أن يسلط عليه كلباً، فخرج نفر من=

وسمع أبو لهب بدعاء رسول اللّه ﷺ فقال: واللّه إنّي لأتوجس شرًا من دعوة محمد على ابني. وخرج أبو لهب وابنه في قافلة، وكانوا إذا جاء الليل، ينام ولده في مكان وحوله كل رجال القافلة، ويجندون الحرس حوله؛ لأنهم خائفون من دعوة رسول اللّه ﷺ، ومرة وهم نيام إذا بأسد يقفز من فوق الرجال، ويأكل ابن أبي لهب. فتحققت دعوة رسول اللّه ﷺ: يأكلك كلب من كلاب اللّه؛ وكان كلب اللّه أسداً.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي معجزة طلبتموها فحققها اللّه سبحانه وتعالى، لا تستطيعون تكذيبها؛ لأنها حدثت أمامكم، وخرجت الناقة من الصخرة. وخروج الناقة من الصخرة تحدٍّ لمراحل الخلق؛ لأن الكائنات الأرضية إما جماد وإما أن يأخذ الجماد صورة النمو فيصير نباتاً، أو يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً، أو يأخذ صفة الفكر فيصير إنساناً. هذه أجناس الوجود. وكان من الممكن أن تخرج شجرة من الصخرة فيكون هذا إعجازاً؛ ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يخرج نباتاً من الصخرة؛ بل أخرج حيواناً. ناقة تحمل في بطنها جنيناً، أي أنها حملت وهي تخرج من حجر.

وما دامت ناقة اللّه وهي المعجزة التي طلبتموها، فحققها اللّه لكم، وجعلها مشهودة بينكم، فحافظوا عليها. لا تتعرضوا لها حين تشرب، وحين تأكل. اتركوها. ولذلك قال لهم نبيهم صالح: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[1]. فهي ناقة اللّه، اتركوها ترعى في أرض اللّه، وتأكل من خير اللّه، وحافظوا عليها، ولا تمسوها بسوء؛ لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتيكم عذاب اللّه وسيكون قريباً.

= قريش حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي هو واللّه آكلي كما دعا محمد عليَّ، قتلني ابن أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام، فعوى عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فضغمه ضغمة فذبحه».

دلائل النبوة للبيهقي [٢/ ٣٣٨/ ٣٣٩]

(١) قال الشوكاني: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] أي دعوها تأكل في أرض اللّه مما فيها من المراعي التي تأكلها الحيوانات.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ قال الفراء: بعقر، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ جواب النهي، أي: قريب من عقرها، وذلك ثلاثة أيام.

فتح القدير [٢/ ٥٢٠]

وهكذا أعطاهم العظات كلها. لقد أردتم آية، فجاءتكم ناقة الله تحمل ولدها في بطنها كما طلبتم تماماً، وكانت معجزة مشهودة، لا تتعرضوا لها ولا تمسوها بسوء وإلا أتاكم العذاب من الله سبحانه وتعالى. والحق سبحانه وتعالى حين يطلب الكفار آية، ويجيبهم إلى طلبهم، ولا يؤمنون بها يحق عليهم العذاب، فماذا فعلت ثمود؟ وجدوا الناقة تأكل من زرع الكفار فتأتي عليه، وتأتي لزرع المؤمنين فلا تأكل منه، وإذا شربت شربت كمية من الماء بحيث لا يبقى في الآبار إلا اليسير، فيأتون ليرووا في اليوم الثاني، فلا يجدون ماء، ويأتي اليوم الثالث فتمتلئ الآبار بالماء. فقد حدد الحق سبحانه وتعالى أن للناقة شرب يوم، ولهم شرب يوم[1]؛ فلم يستطيعوا الاحتمال، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عندما عقروا الناقة قال لهم صالح: امكثوا ثلاثة أيام لن يمسكم فيها شيء ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ

---

(١) قال ابن كثير وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة، من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة ومواصفاتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عزّ وجلّ ما قدر له، ثم دعا ربه عزّ وجلّ أن يجيبهم إلى ما طلبوا؛ فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها؛ أي أكثرهم. وكان رئيس الذين آمنوا: جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس وكان من رؤسائهم وَهَمْ بقية الأشراف بالإسلام، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صعد ابن جلمس.

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم. ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، وبهذا قال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

قصص الأنبياء [١٤٩، ١٥٠] بتصرف

﴿مَكْذُوبٍ﴾[1] [هود: ٦٥]. ثم يأتي وعد الله بالعذاب في اليوم الرابع؛ ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٦٦]. ولم يقل فلما جاءت الصاعقة أو الصيحة، بل جاء الأمر من الله بالعذاب، وهو أمر مطاع، لأن الحق سبحانه وتعالى له الأمر كله؛ فيقول للشيء: كن فيكون.

يقول الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[2] الفاعل واحد، هو الله سبحانه وتعالى، والأمر واحد. فكيف ينجو المؤمنون ويهلك الكافرون؟.. هذه هي عظمة الخالق سبحانه وتعالى، يبطل طبائع الأشياء أو يمضيها.. إبراهيم عليه السلام أُلقي في النار، لو كان المراد ألا يحترق إبراهيم في النار لما مَكَّنَ الله خصومه منه فأمسكوا به، أو لأخفاه عنهم؛ ولكن الله مكنهم منه، وأشعلوا النار.

ولو أن الله سبحانه وتعالى لا يريد إحراق إبراهيم لهطلت الأمطار وأطفئت النار؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبقى النار مشتعلة، وأخذوا إبراهيم وألقوه فيها.

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقطع عليهم سبل المعاذير؛ فلا يقولوا: لو أمسكناه لأحرقناه، ولكنه أفلت منا. أو يقولون: لو لم ينزل المطر لبقيت النار مشتعلة وأحرقناه.. ولكنهم أمسكوه والمطر لم ينزل، وظلت النار مشتعلة؛ ولكن خالق الأشياء يغير طبيعتها متى شاء. ولذلك أصدر الله تعالى أمره إلى

---

(١) قال القرطبي: قوله تعالى إنما عقرها بعضهم؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين.
﴿تَمَتَّعُوا﴾ أي: قال لهم صالح تمتعوا؛ أي بنعم الله عزّ وجلّ قبل العذاب.
﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي في بلدكم، ولو أراد المنزل لقال: في دوركم.
وقيل: أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه؛ كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي كل واحد طفلاً. وعبر عن التمتع بالحياة، لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشيء؛ فعُقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثاً، فاصفرّت ألوانهم في اليوم الأول، ثم احمرّت في الثاني، ثم اسودّت في الثالث، وهلكوا في الرابع.
تفسير القرطبي [٩/ ٦٠]

(٢) قال ابن عطية: «الأمر» جائز أن يراد به المصدر من أمر، وجائز أن يراد به واحد الأمور. وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يحتمل أن يقصد أن التنجية إنما كانت بمجرد الرحمة، ويحتمل أن يكون وصف حال فقط: أخبر أنه رحمهم في حال التنجية.
وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ الظاهر أنه متعلق بـ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿نَجَّيْنَا﴾.
المحرر الوجيز [٣/ ١٨٦]

النار قائلاً: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] [الأنبياء: ٦٩].

وهكذا كانت الصيحة أو الريح أو الرجفة.. القوم كلهم موجودون في مكان واحد، كافرهم ومؤمنهم؛ وتأتي الصيحة فيهلك الكافر، وبجواره المؤمن، لا يحدث له شيء؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك.

إن أمر الله جاء بالعذاب بعد قوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ويسأل بعض الناس: إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قرر إهلاكهم، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام؟.. نقول: إن الله تبارك وتعالى أراد أن يعيشوا ثلاثة أيام؛ ليعانوا من قرب تنفيذ الوعيد الذي قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ والله أعلم.

حين يعد الإنسان بشيء فمن الممكن ألا يقدر عليه وقت التنفيذ؛ فقد يموت قبل تنفيذ الوعد، وقد يمرض، وقد تقع أحداث تجعل تنفيذ الوعد مستحيلاً؛ ولكن إذا كان الوعد من الله تبارك وتعالى.. فيكون وعداً نافذاً غير مكذوب؛ لأنه لا توجد قوة في هذا الكون تستطيع أن توقف تنفيذ أمر الله؛ فإذا كان الأمر قد صدر من الله فإن قوى الكون كلها تعمل بأمره ولتنفيذ ما وعد. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نتأدب في كلامنا؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] [الكهف: ٢٣، ٢٤] بهذا تكون الأحداث قد نسبت إلى من يملك الأمر، وإلى من مشيئته نافذة، وهو الله سبحانه وتعالى... لماذا؟

---

(١) انظر معجزة نبي الله إبراهيم عليه السلام في هذا الكتاب.

(٢) قال ابن كثير: هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب، الذي يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف يكون.

كما ثبت في الصحيحين[1] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ـ وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له: ـ وفي رواية قال له الملك ـ: قل إن شاء الله فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته». وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعين».

تفسير ابن كثير [٣/ ٧٧]

---

(١) أخرجه البخاري [٥٢٤٢]، ومسلم [١٦٥٤/ ٢٣، ٢٤، ٢٥].

لأنك لو قلت: سأفعل غداً، فإنك لا تملك الزمن، ولا تملك العمر، ولا تملك الصحة، ولا تملك القدرة لكي تفي بوعدك، فرد الأحداث إلى مشيئة الله القوي القادر، حتى إذا لم تفِ بما وعدت، تكون قد خرجت عن الكذب؛ لأن الله لم يشأ؛ فالفعل يقتضي فاعلاً ومفعولاً وقدرة، والإنسان لا يملك أي شيء من هذا. فمن له القوة والقدرة على الإنفاذ؟ ومن إذا قال فعل؟ هو الله تبارك وتعالى وحده.

الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾. وقوله: ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي: أنها ديار متعددة. فكأن الذين كفروا كانوا في أكثر من مكان، فكأن العذاب نزل على جميع الديار، وعلى الذين كانوا خارج الديار؛ ولم ينج من العذاب إلا شخص واحد اسمه «أبو رغال»[1]. كان يحج بيت الله الحرام، لم

---

(١) قال القرطبي: وقيل: احترقوا بالصاعقة فأصبحوا ميتين، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه.

تفسير القرطبي [٧/ ٢٤٢]

قال ابن كثير: قال الإمام أحمد[1]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً كان في حرم الله» قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

وقد قال عبد الرزاق أيضاً[2]: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال، فقال: «أتدرون قبر من هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله فمنعه حرمُ الله عذابَ الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن».

قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن إسماعيل بن =

---

(١) أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٢٩٦]، وذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٥٣] وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) انظر تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني [١/ ٢٣٢].

يتبعه العذاب في بيت الله؛ لأن الله طلب منا أن نُؤَمِّن من دخل بيته الحرام، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا نحن عباده أن نُؤَمِّن من دخل بيته الحرام، فهو سبحانه أولى أن يُؤَمِّنَ من دخله، ولذلك ظل الحجر الذي سيُضرب به أو الصيحة التي ستُودي بحياته إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه، فكل الكفار أُهلِكوا إلا هذا الرجل، ظل العذاب ينتظره حتى خرج من بيت الله الحرام فوقع عليه الحجر.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]. هنا سماها الحق: صيحة، وسماها في سورة أخرى: «الطاغية» قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[1] [الحاقة: ٥]. وسماها في سورة ثالثة «الصَّاعقة» كما في قوله

= أمية، عن بجير بن أبي بجير، قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدُفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه»[1] فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن.

وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز.

قلت: تفرد به بجير بن أبي بجير هذا، ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية.

قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم في رفعه. وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه، والله أعلم.

قصص الأنبياء [١٥٤، ١٥٦]

(١) قال الماوردي: فيها خمسة أقاويل:

أحدها: بالصيحة، قاله قتادة.

الثاني: بالصاعقة، قاله الكلبي.

الثالث: بالذنوب، قاله مجاهد.

الرابع: بطغيانهم، قاله الحسن.

الخامس: أن الطاغية عاقر الناقة، قاله ابن زيد.

النكت والعيون [٦/ ٧٦]

---

(١) أخرجه أبو داود [٣٠٨٨]، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [٦٧٨].

تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] [فصلت: ١٣].

وفي سورة الأعراف سماها «الرجفة»، واقرأ قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2] [الأعراف: ٧٨، ٧٩]. والصاعقة والصيحة والرجفة كلها تؤدي

---

(١) قال ابن الجوزي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾. الصاعقة: المُهلِكُ من كل شيء؛ والمعنى: أنذرتُكم عذاباً مثلَ عذابهم. وإنما خصّ القبيلتين، لأن قريشاً يمرون على قرى القوم في أسفارهم. زاد المسير [٧/ ٥٧]

(٢) قال القرطبي: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة. وقيل: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم؛ كما في سورة هود في قصة ثمود فأخذتهم الصيحة.
يقال: رجفت الشيء يرجف رَجْفاً ورَجفاناً. وأرجفت الريحُ الشجرَ حركته. وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦].
قال الشاعر:

ولما رأيت الحج قد آن وقته ... وظلت مطايا القوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي بلدهم. وقيل: وحِّد على طريق الجنس، والمعنى: في دُورهم وقال في موضع آخر: ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود: ٦٧] أي في منازلهم.
﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، كما يجثم الطائر، أي صاروا خامدين من شدة العذاب. وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها، والموضع مَجْثَم.
قال زهير:

بها العين والآرام يمشين خِلْفة ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي عند اليأس منهم، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩] يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم. ويحتمل أنه قاله بعد موتهم، كقوله عليه الصلاة والسلام لقتلى بدر: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقيل: أتكلم هؤلاء الجيف؟ فقال: «ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يقدرون على الجواب»[1]. والأول أظهر يدل عليه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي لم تقبلوا نُصحي.
تفسير القرطبي [٧/ ٢٤٢]

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً. ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل ابن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا» فسمع عمر قول النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيّفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر. أخرجه البخاري [٣٩٧٦]، ومسلم [٢٨٧٤] واللفظ له.

إلى معنى الحديث، هو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه.

على أننا لا بد أن ننتبه إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[١] [هود: ٦٧]، كان القياس السطحي يقتضي القول: وأخذت الذين ظلموا الصيحة. ولكن الذي يتكلم هو الله، والذين يقولون: كان لا بد أن تكون «أخذت» بالتأنيث نقول لهم: إن الصيحة ليس معناها أنها حدثت مرة واحدة؛ لأن التاء هنا تستخدم عندما تكون حدثت مرة واحدة، لكنها صياح وليس صيحة[٢]، والصياح فيه عزيمة الرجولة؛ ولكن الله أراد أن يجمع الأمرين فتكون صيحة وقوة؛ ولذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لم يقل أخذت، لأنها حدثت مرات متعددة.

وفي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي مُلقون على ركبهم وجباههم هامدين بلا حراك، و﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾[٣] [هود: ٦٨] ومادة غنى كلها سواء غنى وغنَّى وغناء وغنائم كلها تؤدي نفس المعنى[٤]. ويقول.. ما صلة

---

(١) قال القرطبي: أي في اليوم الرابع صيح بهم فماتوا؛ وذلك لأن الصيحة والصياح واحد. قيل: صيحة جبريل، وقيل: صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا.

تفسير القرطبي [٩/ ٦١]

(٢) قال ابن عطية: وذكر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى الصياح، وتأنيثها غير حقيقي، وقيل: جاز ذلك وهي مؤنثة لما فصل بين الفعل وبينها. كما قالوا: حضر القاضي اليوم امرأة؛ والأول أصوب، و﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ إنما تجيء مستعملة في ذكر العذاب؛ لأنها فعلة تدل على مرة واحدة شاذة، والصياح يدل على مصدر متطاول، وشذ في كلامهم قولهم: لقيته لقاءة واحدة، والقياس لقية.

المحرر الوجيز [٣/ ١٨٦]

(٣) قال أبو جعفر النحاس: وقوله عزّ وجلّ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ قال قتادة: أي كأن لم يعيشوا فيها. قال الأصمعي: المغاني: المنازل. قال غيره: غَنِيتُ بالمكان إذا نزلت به والمعنى: كأن لن يُقيموا فيها في سرورٍ وغبطة.

معاني القرآن [٣/ ٣٦١]

قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء.

قصص الأنبياء [١٥٤]

(٤) قال ابن منظور: وغَنِيَ به أي عاش. وغَنِيَ القومُ بالدار غِنًى: أقاموا. وغَنِيَ بالمكان: أقامَ: قال ابن بري: تقول غَنِيَ بالمكان مَغْنًى وغَنِيَ القومُ في ديارهم إذا طال مقامهم=

هذا بما سبق؟ ثم هو قوله كأن لم تقم بالأمس ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) [يونس: ٢٤]. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: كأنهم لم يقيموا فيها بالأمس، كأنها أصبحت خالية، ولم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾(٢) [هود: ٦٨]. هذه حيثية إهلاكهم بالصاعقة، وهم لعنوا في الدنيا والآخرة.. إن الحق سبحانه وتعالى أخبرنا ببشاعة جريمتهم؛ حتى نعلم أن القصاص عادل ومناسب لبشاعة الجريمة. وأما قوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ فعادة ما يقال كفروا بربهم، ولكن الحق تبارك وتعالى قال: ﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي أن هناك فرقاً بين المعنيين. كفروا: أي ستروا وجوده وأنكروه، وكفروا بربهم: أي لم يؤمنوا به، مع اعترافهم بأنه موجود، هذا هو الفرق، وعندما نرى الذنب الكبير الذي

= فيها. قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾؛ أي لم يُقيموا فيها؛ وقال مهلهل:

غَنِيَتْ دارنا تهامة في الدهر ... وفيها بنو مَعَدٍّ حُلُولاً

لسان العرب [١٥/ ١٣٩]

(١) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي حُسنها وزينتها، والزُّخرف: كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب: زُخرف، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي بالحبوب والثمار والأزهار.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أي أيقن. ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض. والمعنيُّ النبات إذ كان مفهوماً وهو منها. وقيل: رد إلى الغلة، وقيل: إلى الزينة.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا، أو أمرنا بهلاكها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ مفعولان، أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها.

وقال: ﴿حَصِيدًا﴾ ولم يؤنث لأنه فعيل بمعنى مفعول. قال أبو عبيد: الحصيد المستأصل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي لم تكن عامرة؛ من غنى إذا قام فيه وعمره. والمغاني في اللغة: المنازل التي يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. قال لبيد:

وغَنِيتُ سَبْتاً قبل مجرى داحسٍ ... لو كان للنفس اللجوج خلودُ

تفسير القرطبي [٨/ ٣٢٧، ٣٢٨]

(٢) قال الماوردي: فيه وجهان: **أحدهما**: كذبوا وعيد ربهم.

الثاني: كفروا بأمر ربهم.

النكت والعيون [٢/ ٤٨١]

ارتكبوه . . نعرف أن إهلاكهم كان عدلاً. ونقول كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[1].

(١) قال الزمخشري: فإن قلت: ﴿بُعْدًا﴾ دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قلت: معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له، ألا ترى إلى قوله:

إخوتي لا تبعدوا أبداً ... وبلى والله قد بعدوا

الكشاف [٢/ ٢٢٢]

معجزة
إبراهيم عليه السلام

معجزة إبراهيم عليه السلام

اللّه سبحانه وتعالى حينما يؤيد رسله بآية يعطل لهم قوانين الكون بما يؤيد تلك المعجزة. فمثلاً: معجزة إبراهيم عليه السلام، عطّل اللّه فيها خاصية الإحراق للنار [١].

لقد جاء الكفار من قوم إبراهيم ليحرقوه أمام أصنامهم وآلهتهم، وفي ظنّهم أن هذه الآلهة ستعاونهم على الفتك بإبراهيم وإحراقه. فماذا حدث؟ جاءوا بإبراهيم، وأمام آلهتهم وفي حمايتها بزعمهم وأوقدوا ناراً هائلة ليحرقوه، وأرادوا الحرق أمام الآلهة وعلى مشهد منها؛ ليكون الانتقام من إبراهيم، انتقاماً تباركه الآلهة وتجعله رهيباً.

وشاء اللّه سبحانه وتعالى أن يتم ذلك كله، فكان من الممكن أن يختفي إبراهيم في أي مكان ولا يظهر. كان ذلك ممكناً ليقي إبراهيم الحرق، واللّه قادر على جعلهم لا يقدرون عليه.. قادر على أن يخفيه عنهم؛ ولكن لو حدث هذا لقالوا: لو أننا قبضنا عليه لأحرقناه. ولذلك كان لا بد أن يقع إبراهيم في أيديهم، ليعرف القوم جميعاً سفاهة معتقداتهم.

وكان من الممكن أن تنطفئ النار لأي سبب من الأسباب؛ كأن ينزل المطر من السماء مثلاً. ولكن ذلك لم يحدث؛ لأنه لو حدث لقالوا: لو لم تمطر السماء لانتقمت آلهتنا منه بالحرق. ولكن إبراهيم لم يهرب؛ بل وقع في أيديهم، والنار لم تنطفئ بل ازدادت اشتعالاً، وألقوا بإبراهيم في النار ليحرقوه. واللّه سبحانه وتعالى عطّل خاصية الإحراق في النار. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [٢] [الأنبياء: ٦٩].

---

(١) قال الزمخشري: فإن قيل كيف بردت النار وهي نار؟

قلت: نزع اللّه عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق، وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت، واللّه على كل شيء قدير، ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرّها، ويذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنم، ويدل عليه قوله: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

الكشاف [٣/١٦]

(٢) قال أبو حيان: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ﴾ هو اللّه تعالى. وقيل: جبريل عليه السلام بأمر اللّه تعالى. =

إذاً فمعجزة إبراهيم ليست أن ينجو من النار، ولو أراد الله أن ينجيه لما استطاعوا أن يقبضوا عليه، ولكن الله شاء أن تظل النار متأجّجة محرقة قوية، ويلقى فيها إبراهيم أمام الناس، ثم يعطل الله قانون الإحراق فيها.

= وعن ابن عباس: لو لم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لهلك إبراهيم من البرد، ولو لم يقل: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ لما أحرقت نار بعدها ولا انقدت. انتهى.

ومعنى ﴿وَسَلَٰمًا﴾ سلامة، وأبعد من ذهب إلى أنها هنا تحية من الله، ولو كانت تحية لكان الرفع أولى بها من النصب.

والمعنى ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام، ولما كانت النار تنفعل لما أراده الله منها كما يفعل من يعقل عبر عن ذلك بالقول لها والنداء والأمر.

البحر المحيط [٧/ ٤٥١]

قال ابن كثير: قال سعيد بن جبير: ويروى عن ابن عباس أيضاً قال: لما أُلقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أُومر بالمطر فأرسله، قال: فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قال.. لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال الثوري عن الأعمش عن شيخ عن علي بن أبي طالب ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قال: لا تضريه. وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذى إبراهيم بردها. وقال جويبر عن الضحاك: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قالوا: صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب فأصبح ولم يصبه منها شيء، حتى أخمدها الله: قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق؛ فلم يصبه منها شيء غير ذلك، وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

تفسير ابن كثير [٣/ ١٧٩، ١٨٠]

معجزة
يوسف عليه السلام

- تأويل رؤيا السجينين
- تأويل رؤيا الملك
- التنبوء بالغيب

معجزة يوسف عليه السلام

رأى يوسف وهو صغير رؤيا في منامه فلما استيقظ قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[1] [يوسف: ٤]. ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتميز بإعجازين:

---

(١) قال ابن كثير: قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكباً، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له، فهاله ذلك. فلما استيقظ قصّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها. فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر.

قصص الأنبياء [٦٨]

قال البغوي: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ أي: واذكر إذ قال يوسف لأبيه.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أي: نجماً من نجوم السماء، ونصب الكواكب على التفسير.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ ولم يقل رأيتها إلي ساجدة، والهاء والميم والياء، والنون، من كنايات من يعقل؛ لأنه لما أخبر عنها بفعل من يعقل عبَّر عنها بكناية من يعقل، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

وكان النجوم في التأويل أخواته[1]، وكانوا أحد عشر رجلاً، يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه، والقمر أمه. قاله قتادة.

وقال السدي: القمر خالته؛ لأن أمه راحيل كانت قد ماتت.

وقال ابن جريج: القمر أبوه والشمس أمه؛ لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر.

معالم التنزيل [٤/ ٢١٢، ٣١٢] بتصرف

قال أبو حيان: قال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ أخَّر الشمس والقمر؟

قلت: أخَّرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص إثباتاً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل ومكيائيل عن الملائكة، =

---

(١) في بعض النسخ: إخوته.

الأول: لأننا جميعاً نرى الشمس والقمر والكواكب، ولكن الشيء العجيب في هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يجتمعان معاً.

والشمس إذا ظهرت لا نقول: إن القمر غير موجود، ولكننا نقول: إنه لا القمر ولا النجوم نراهما مع الشمس، فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا.

الإعجاز الثاني في هذه الرؤيا: أن يوسف رأى أحد عشر كوكباً وعرف عددها، ومعنى ذلك أنها واضحة.

لم يقل يوسف عليه السلام: رأيتهم ساجدين، أي الشمس والقمر والكواكب، وإنما قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. فكأنه رآها أولاً، ثم رآها مرة ثانية وهي تسجد له؛ ذلك لأنك إذا قلت هذا الشيء يسجد لي.. فلا بد أن ترى هذا الشيء قبل أن يسجد، ثم تراه ساجداً؛ لأنه لو رآهم من أول الأمر ساجدين؛ فقد تكون هذه صفتهم التي خُلقوا عليها وليس هناك سجود خاص له، ولكنه لا بد أنه رآهم بدون سجود ثم رآهم يسجدون له. ولقد تكررت كلمة رأى[1] في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾. وقوله جل جلاله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وتكرار كلمة «رأى» هنا أظهرت لنا أنه رأى الشمس والقمر والكواكب أولاً.. وقام بعَدِّ الكواكب حتى

= ثم عطفهما عليهما لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. انتهى.

والذي يظهر أن التأخير إنما هو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ولم يقع الترقي في الشمس والقمر جرياً على ما استقر في القرآن من أنه إذا اجتمعا قدمت عليه.

البحر المحيط [٦/ ٢٣٧، ٢٣٨]

(١) قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى تكرار رأيت.

قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

الكشاف [٢/ ٢٤٢]

قال الإمام فخر الدين الرازي: قال القفال رحمه الله: ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له.

تفسير الرازي [١٨/ ٨٧]

عرف أن عددها أحد عشر كوكباً؛ وهذا يدل على أن الكواكب تميزت من دون كواكب السماء.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾. لها معنى.. فهو لم يرهم ساجدين على إطلاقها، فقد تكون ظاهرة طبيعية، أو أي شيء من الظواهر الفلكية، ولكن يوسف عليه السلام قال: إنهم كانوا ساجدين له. فلا بد أنه رأى فيهم من مظاهر الخضوع لذاته ما جعله يتأكد أن السجود له، أو أنهم يسجدون له، و﴿سَٰجِدِينَ﴾ جمع مذكر سالم، ولا يجمع المذكر السالم إلا إذا كان من العاقل[١].

والشمس والقمر والكواكب ليسوا عاقلين. نقول: أرآهم يوسف يسجدون له ولا يكون عندهم عقل؟ ما هي مهمة العقل؟. أن يختار بين البدائل، ويرى مصالح الدين ومصالح الدنيا؛ وأسمى آيات الخضوع في الدين هو السجود.

ولكن هل سجدت الشمس والقمر والكواكب ليوسف من نفسها، أو بأمر يوسف؟.. لا هذا ولا ذاك؛ بل سجدت بأمر الله، سجود التكريم لا سجود العبادة، تماماً كسجود الملائكة لآدم[٢]، وما داموا قد سجدوا فخاطبهم خطاب

---

(١) قال الزمخشري: فإن قلت: فلِمَ أجريت مجرى العقلاء في ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.
قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطي حكماً من أحكامه؛ إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة.

الكشاف [٢/ ٢٤٢]

وقال ابن عطية: وجري ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل، إنما كان لما وصفت بأفعال هي خاصة بمن يعقل.

المحرر الوجيز [٣/ ٢٢٠]

وقال القرطبي: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فجاء مذكراً؛ فالقول عند الخليل وسيبويه: أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل ـ أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل.

تفسير القرطبي [٩/ ١٢٢]

(٢) قال أبو حيان: والسجود: سجود كرامة، كما سجدت الملائكة لآدم.
وقيل: كان في ذلك الوقت السجود تحية بعضهم لبعض.

البحر المحيط [٦/ ٢٣٨]

قال الماوردي: وفي قوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وجهان:
أحدهما: أنه السجود المعهود في الصلاة إعظاماً لا عبادة. =

العقلاء، وهم ليسوا عاقلين لك أنت، ولكن عاقلين عند ربهم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١، ٢]. أذنت من الإذن[١]. أي سمعت من اللّه؛ فبمجرد أن سمعت أطاعت وعقلت وانشقت.

إذاً.. فسجود الشمس والقمر والكواكب كما رآها يوسف في المنام سجود تكريم، وليس سجود عبادة، وسجود لأمر اللّه وليس سجوداً لأمر يوسف.

= **الثاني**: أنه رآهم خاضعين فجعل خضوعهم سجوداً، كقول الشاعر:

ترى الأكم فيه سُجداً للحوافر

النكت والعيون [٣/٧]

(١) قال الماوردي: معنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾: أي سمعت لربها، ومنه قول النبي ﷺ: «ما أذن اللّه لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن»[١] أي ما استمع اللّه لشيء، وقال الشاعر:

صُم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

النكت والعيون [٦/ ٢٣٤]

---

(١) أخرجه البخاري [٥٠٢٣] عن أبي هريرة بلفظ: لم يأذن اللّه لشي ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن.

تأويل رؤيا السجينين

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] [يوسف: ٣٦]. في السجن تقترب النفوس من بعضها.. دخل مع يوسف السجن خباز الملك، وساقيه، وقيل: إن الخباز كان قد تآمر على الملك، وأن الساقي كان سيضع للملك السم في الشراب[2].

وأن الفتيين الخباز والساقي قد رأى كل منهما رؤيا ويريد أن يفسرها له يوسف.

وهنا نعلم أنهما لا بد قد مكثا مع يوسف فترة طويلة؛ لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة، بل لا بد من طول العشرة التي جعلتهما يلجآن إلى يوسف في كل أمر يهمهما، لأنهما رأيا في يوسف الإنسان السوي حسن الخلق؛ كان كل منهما قد رأى حلماً. أحدهما رأى أنه يعصر خمراً، والثاني رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً.. وكأن الاثنين قد عرفا أن يوسف يقوم بتأويل الأحلام[3]، وبأنه

---

(١) قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل: كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل: «نبوا»، والآخر خبازه، يعني الذي يلي طعامه، وهو الذي يقول له الترك: «الجاشنكير» واسمه فيما قيل: «مجلث»، وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه، ودَلُّهُ وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه.

قصص الأنبياء [٢٨٠]

(٢) قال أبو حيان: وروي أنهما كانا للملك الأعظم الوليد بن الريان، أحدهما خبازه، والآخر ساقيه وروي أن الملك اتهمهما بأن الخابز منهما أراد سمه ووافقه على ذلك الساقي، فسجنهما، قاله السدي.

البحر المحيط [٦/ ٢٧٥]

(٣) قال البغوي: وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول: إني أعبر الأحلام. فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ فلنجرب هذا العبد العبراني.

معالم التنزيل [٤/ ٢٤٠]

صادق فيما يقول، وسواء جربا ذلك على نفسيهما أو حدث ذلك بالنسبة لمسجونين آخرين فإنهما قد تأكدا من علم يوسف بتأويل الأحلام، وأنه صادق في تأويله.

إذاً.. قولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] هو سبب سؤالهما له في الرؤيتين اللتين رأياها؛ ولذلك لا بد أنه قد سبق سؤالهما أشياء صدرت منه بينت أنه من المحسنين. وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أن الإحسان ظاهر في يوسف عليه السلام، أي أنهما ليسا محتاجين لتتبع عمله؛ لأن كل ما يعمله يوسف هو في مقام الإحسان. فكأنما المسألة واضحة، لا تحتاج إلى ذكاء أو فكر، لأنها رؤية عين وكل إنسان مؤمناً كان أو كافراً يعرف الإحسان ويعرف السوء، ولكن كل واحد ينظر إلى الإحسان من مفهومه الخاص، وإلى السوء من مفهومه الخاص.

ولو أنهم نظروا إلى حركة الكون، وإلى ما يتعلق بهم وبغيرهم لعرفوا الإحسان والسوء. فالذي يسرق مثلاً يعتبر من السوء أن يسرقه غيره؛ لذلك فإن اللص الذي يسرق أموال الناس يعتبر ذلك شيئاً حسناً، وعندما يسرقه غيره يعتبر هذا سوءاً. وهكذا فإن نظرة بعض الناس الضيقة تجعلهم يغفلون عن مقام الإحسان؛ ولكن إذا نظر الإنسان بمقاييس الخلق الحسن فإنه يعرف جيداً ما هو الإحسان وما هو السوء.

قد تمد عينيك لتنظر إلى زوجة غيرك، هذا في نظرك ليس سوءاً، ولكن إذا أردت أن تعرف الحقيقة فاعكس الصورة، بأن يمد غيرك بصره إلى زوجتك.. في هذا الوقت يعتدل الميزان وتحس بالسوء.

إذاً.. إذا أردت أن يعتدل ميزانك في الدنيا فانظر إلى الفعل الذي يقع منك وعليك. فستجد الميزان منضبطاً، إنما لو نظرت لفعل يقع منك اختل الميزان؛ لأن

---

(١) قال الماوردي: فيه ستة أقاويل:

أحدها: أنهم وصفوه بذلك؛ لأنه كان يعود مريضهم، ويعزي حزينهم، ويوسع على من ضاق مكانه منهم، قاله الضحاك.

الثاني: معناه لأنه كان يأمرهم بالصبر ويعدهم بالثواب والأجر.

الثالث: إنا نراك ممن أحسن العلم. حكاه ابن جرير الطبري.

الرابع: أنه كان لا يرد عذر معتذر.

الخامس: أنه كان يقضي حق غيره ولا يقضي حق نفسه.

السادس: إنا نراك من المحسنين إن أنبأتنا بتأويل رؤيانا هذه، قاله ابن إسحاق.

النكت والعيون [٣/ ٣٦، ٣٧]

اللّه حرم عليك أن تسرق مال غيرك. تقول: إن اللّه ضيَّق حريتي، ونقول لك: ولكنه ضيق أيضاً حرية ملايين الناس بألا يسرقوا مالك، فأيهما أربح لك؟

ولذلك فالذي يعرف مقام الإحسان لا يفصل بين الفعل الواقع منه والفعل الواقع عليه، بل ينظر إليهما معاً، فإذا استقبحته من الغير عليك يكون قبيحاً منك على غيرك؛ ولذلك عندما قال السجينان ليوسف: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلأنهما علما أن مقاييس الإحسان عند يوسف سليمة، ولذلك لجآ إليه في الأمر الذي يهمهما.

ولأن يوسف على منهج مستقيم وملتزم.. فلا بد أن هذين الرجلين عندهما بداية إيمان وإحسان، ولذلك قرر قبل أن يعطيهما حاجتهما أن يأخذ حاجته منهما أولاً، وقال لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾[1] [يوسف: ٣٧]. وكأنه يقول لهما إنه يعلم أشياء كثيرة غير التي يريانها ظاهرة عليه. ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية، فقال: إن هذه ليست من عندي ولا خصوصية لي؛ لأن هذه علَّمها لي ربي[2] وربي لم يعلِّمها لي وحدي، وإنما علَّمني وعلم غيري؛ فهو يُعَلِّمُ كل من يتجه إليه.

والرؤيا التي قصها الرجلان هي في قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ...﴾ [يوسف: ٣٦] وتفسير الرؤيا التي قصها الرجلان على يوسف هي أن أحدهما تظهر

---

(١) قال القرطبي: قال لهما يوسف: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ يعني لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكما، فقالا: افعل! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال، وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف. وبين أن اللّه خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون باللّه، يعني دين الملك.

ومعنى الكلام: عندي العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما، والعلم بدين اللّه، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام تفسير القرطبي [١٩٠، ١٩١/ ٩].

(٢) قال ابن عطية: رُوي أنهما قالا: ومن أين لك ما تدعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لهما الإيمان باللّه.

المحرر الوجيز [٣/ ٢٤٤]

براءته ويعود إلى القصر ويسقي سيده خمراً، أما الآخر وهو خبَّاز فتثبت عليه التهمة فيصلب وتأتي الطير لتأكل من رأسه[١].

إذاً... فالساقي الذي اتُّهم بأنه سيضع السم للملك في الشراب ستظهر براءته ويعيده الملك إلى خدمته.

والثاني: وهو خباز القصر الذي اتُّهم بأنه كان سَيَدُسُّ السم للملك في الخبز فستظهر إدانته؛ فيصلب وتأكل الطير من رأسه.

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٢] يعني انتهينا، وقلت لكما الجواب ومعنى تفسير الرؤيتين، و﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ لأن القاضي عندما يحكم يكون ذلك بموضوعية الحكم، وليس بالهوى؛ فالهوى يلوِّن الحكم. ولذلك فإن يوسف ألقى بالحكم على ما رآه السجينان دون أن يلتفت إلى أنه ينذر أحدهما بالموت، قالها دون أي لون من التلوين، حقيقة ثابتة، وقالها دون أن يلتفت للعواطف.

---

(١) قال ابن كثير: ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ قالوا: وهو الساقي. قالوا: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ وهو الخباز ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

قصص الأنبياء [٢٨١]

(٢) قال البغوي: أي: فُرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتكما به، رأيتُما أو لم تَرَيا.

معالم التنزيل [٤/ ٢٤٣]

قال ابن الجوزي: فإن قيل: لِمَ حتَّم على وقوع التأويل، وربما صدق تأويل الرؤيا وكذب؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنه حتَّم ذلك لوحي أتاه من الله، وسبيل المنام المكذوب فيه أن لا يقع تأويله، فلما قال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، دلَّ على أنه وحي.

والثاني: أنه لم يحتم، بدليل قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، قال أصحاب هذا الجواب: معنى ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: قُطع الجواب الذي التمستماه من جهتي، ولم يعن أن الأمر واقع بكما. وقال أصحاب الجواب الأول: الظن هاهنا بمعنى العلم.

زاد المسير [٤/ ١٧٤]

تأويل رؤيا الملك

ورأى ملك مصر رؤيا في منامه أفزعته، تلك الرؤيا التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، وهي:

﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[١] [يوسف: ٤٣].

فما كان من الملك إلا أن جمع العلماء والوجهاء والسادة من قومه وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٢] [يوسف: ٤٣].

هنا يدور الكلام عن مصر، والذي اشترى يوسف هو عزيز مصر، والقصة وقعت في مصر، هناك عزيز مصر وهناك ملك مصر. مع أن الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يسمونهم الفراعنة.. فكيف حدث هذا؟ وأين ذهب فرعون؟ بعد اكتشاف حجر رشيد، عرفنا تاريخ مصر القديم، وعرفنا لغة المصريين القدماء، وعلمنا أن هناك فترة من الفترات توقف فيها حكم الفراعنة، وجاء ملوك الرعاة الذين يسمونهم الهكسوس وحكموا مصر[٣].

---

(١) قال الماوردي: وهذه الرؤيا رآها الملك الأكبر الوليد بن الريان وفيها لطف من وجهين:
أحدهما: أنها كانت سبباً لخلاص يوسف من سجنه.
الثاني: أنها كانت نذيراً بجدب أخذوا أهبته وأعدوا له عدته.

النكت والعيون [٣/ ٤١]

(٢) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ﴾ جمع الرؤيا رُؤى: أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها. واللام في ﴿لِلرُّءْيَا﴾ للتبيين، أي: إن كنتم تعبرون، ثم بيّن فقال: للرؤيا، قاله الزجاج.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٠]

(٣) قال صاحب الظلال: إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية، إنما كان يحكمها «الرعاة» الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم، فعرفوا شيئاً من دين الله منهم. نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب=

كان يوسف وإخوته في عصر الهكسوس، ثم استعاد الفراعنة حكم مصر، وطردوا الهكسوس، وجاءوا بمن تحالفوا معهم فقتلوهم وعذبوهم. في الفترة التي عاشها يوسف لم تكن مصر تحت حكم الفراعنة، وإنما كان الهكسوس يحكمونها، وكان الملك هو الذي يحكم، وأما العزيز فهو مثل الوزير أو رئيس الوزراء. وهذا من إعجاز التنبؤ في القرآن الكريم؛ لأن هذه الحقيقة لم يعرفها العالم إلا حديثاً في فترة الاحتلال الفرنسي لمصر، ولكن القرآن ذكرها منذ أربعة عشر قرناً، قبل أن يقوم أحد بالعثور على حجر رشيد أو فك رموزه. وجاءت الحقيقة العلمية شاهد صدق على نبوءة القرآن الكريم.

ملك مصر عندما رأى هذه الرؤيا طلب تأويلها أي: معناها، وطلب الفتوى، وقال: ﴿أَفْتُونِي . . .﴾ الرؤيا منامية تتعارض مع الفكر السليم، فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[1] تعنى سمان: سمينة، وعجاف تعنى: هزيلة، طلب الملك أن يفسروا له رؤياه، فماذا قال وجهاء قومه؟ ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ . . .﴾[2] [يوسف: ٤٤] والضغث

= «الملك» في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى عليه السلام من بعد بلقبه المعروف «فرعون». ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف عليه السلام في مصر. فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة، وهي أسر «الرعاة» الذين سماهم المصريون «الهكسوس» كراهية لهم.

إذ يقال: إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة: «الخنازير» أو «رعاة الخنازير». وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن.

في ظلال القرآن [٤/ ١٩٦٠]

(١) قال أبو حيان: لما دنا فرج يوسف عليه السلام، رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، فرأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان.

البحر المحيط [٦/ ٢٨٠]

(٢) قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: يعني أخلاط أحلام، قاله معمر وقتادة.

الثاني: ألوان أحلام، قاله الحسن.

الثالث: أهاويل أحلام، قاله مجاهد.

الرابع: أكاذيب أحلام، قاله الضحاك.

الخامس: شبهة أحلام، قاله ابن عباس. =

هو: حزمة الحشائش مختلفة الأجناس، وما دامت أضغاث أحلام أي مختلطة مع بعضها البعض، فليس لها تأويل.

لقد كانوا أمناء وقالوا لا نعرف شيئاً. لكن ساقي الملك الذي نجا سمع هذا الحوار بين الملك ومن معه، فتذكر ما حدث في السجن وما قاله يوسف[١]، وذلك قول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾[٢]

= قال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا، ومنه قول الشاعر:

كضغث حلم عُزّ منه حالمه

وقال: والأضغاث جمع، واحده ضغث، والضغث الحزمة من الحشيش المجموع بعضه إلى بعض، وقيل: ملء الكف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾.

وقال ابن مقبل:

خوذٌ كأن فراشها وُضعت به أضغاث ريحان غداة شمال

النكت والعيون [٣/ ٤٢] بتصرف

(١) قال ابن عطية: ولما سمع الساقي ـ الذي نجا ـ هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه، تذكر يوسف وعلمه بتأويل الأحلام والرؤى، فقال مقالته في هذه الآية.

المحرر والوجيز [٣/ ٢٤٨]

(٢) قال ابن قتيبة: أصل الأمة: الصنف من الناس والجماعة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي صنفاً واحداً في الضلال ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وكقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. أي: أصناف، وكل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء. وتوقّي المهالك، والتماس الذرء، مع أشباه هذا كثيرة.

ثم تصير الأمة: الحين، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] أي سنين معدودة. كأن الأمة من الناس القرن ينقرضون في حين، فتقام «الأمة» مقام «الحين».

ثم تصير الأمةُ: الإمام والرباني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ٢٠]. أي: إماماً يقتدي به الناس؛ لأنه ومن اتبعه أمة، فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع.

وقد يجوز أن يكون سُمّي أمّةً: لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمةٍ.

ومن هذا يُقال: فلان أمةٌ وَحْدَه، أي: هو يقوم مقام أُمّة.

وقد تكون الأمة: جماعة العلماء، كقوله:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. أي يعلمون. =

[يوسف: ٤٥]. إذاً... فالساقي الذي قال له يوسف إنك ستسقي الملك خمراً سمع عن الرؤيا التي رآها الملك، وشاهد حيرة القوم، فتذكر قصته مع يوسف عليه السلام؛ وقال إنني: سأنبئكم بمعناه، ولكنه لم يقل إنه سينبئهم بنفسه بل قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، أي ابعثوني إلى من سيفسر لنا هذه الرؤيا، وأرسلوه، وأسرع إلى يوسف. فماذا قال له؟

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...﴾ [يوسف: ٤٦] وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يتجاوز الأحداث التي يحكم العقل بحدوثها، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى: إنَّ الساقي بعد أن قال لهم أرسلوني إلى السجن لأسأل يوسف، وذهب والتقى بيوسف، وقصَّ عليه الرؤيا فجاءت المواجهة: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (١) أي: يوسف أيها الصادق في قولك.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢) [يوسف: ٤٦] ما معنى أفتنا؟ معناها: قل لنا ما هو تفسير الرؤيا، التي هي رؤيا الملك.

الساقي جاء يطلب هذه الفتوى ليس لنفسه ولكن لمن أرسلوه، وهم:

= والأمة: الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على دين.

تأويل مشكل القرآن [٤٤٥، ٤٤٦]

قال البغوي: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا﴾ من القتل، ﴿مِنْهُمَا﴾ من الفتيين وهو الساقي، ﴿وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكر قول يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد حين، وهو سبع سنين: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾، وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله فأتى السجن، قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

معالم التنزيل [٤/ ٢٤٦]

(١) قال الشوكاني: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ أي: يا يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ إلى آخر الكلام.

فتح القدير [٣/ ٣٣]

(٢) قال ابن عطية: ويُروى أن الملك كان يرى ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ يخرجن من نهر، وتخرج وراءها ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، فتأكل العجاف السمان، فكان يَعْجَبُ: كيف غلبتها. وكيف وسعت السمان في بطون العجاف؟! وكان يرى ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ وقد التفت بها سبع ﴿يَابِسَاتٍ﴾، حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك.

المحرر الوجيز [٣/ ٢٤٩، ٢٥٠]

الملك؛ وحاشيته ليخبرهم بتفسير يوسف؛ لذلك يقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1]. لماذا قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ﴾ ولم يقل: لأرجع؟ لأن الساقي وقد أثر فيه ما أبلغه يوسف في السجن، يعلم أن الأمور ليست بيده، وهو ليس مُتيقناً أنه سيعود إلى الملك، فقد يأتي قضاء الله فيدركه الموت، ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته. ولذلك لم يقل: لأرجع، ولكن قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ﴾؛ لأن رجوعه قضية لا يجزم بها، وذلك احترام لقدر الله مع الإنسان، فرجوعه ليس في يده، فالاحتياط مع قدر الله يخرجك من أن تكون كاذباً.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا • إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فالله عزّ وجلّ يُعلِّم عباده كيف يحافظوا على أنفسهم ويكونوا صادقين. وما دمت صادقاً فالزم قدراتك، ورُدّ الشيء إلى من يملكه، ولذلك قال الساقي: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لأرجع إليهم. وهب أنه رجع إليهم فمن سيضمن له أنهم سيستمعون إليه ويستوعبوا ما يقول؟

إذاً.. فاستعمال كلمة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ احتياط آخر في الأداء، ويقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ﴾، ويقول: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، يعلمون ماذا؟ يعلمون القضية، أو يعلمون التأويل، أو يعلمون منزلة يوسف عند ربه وقدراته؛ ليخلِّصوه من السجن الذي وُضع فيه ظلماً، أو يعلمون علم يوسف وفضله[3].

---

(١) قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعني الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه. وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ قولان:
أحدهما: يعلمون تأويل رؤيا الملك.
والثاني: يعلمون بمكانك فيكون سبب خلاصك.

زاد المسير [٤/ ١٧٧]

(٢) قال القرطبي: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذي القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثن في ذلك.

تفسير القرطبي [١٠/ ٣٨٥]

(٣) قال ابن الجوزي: ذكر ابن الأنباري في تكرير ﴿لَعَلِّيٓ﴾ قولين:
أحدهما: أن «لعل» الأولى متعلقة بالإفتاء، والثانية: مبنية على الرجوع، وكلتاهما بمعنى «كي».
الثاني: أن الأولى بمعنى «عسى»، والثانية بمعنى «كي» فأُعيدت لاختلاف المعنيين.

زاد المسير [٤/ ١٧٧]

قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾. نحن نعرف أن الملك هو الذي كلفه، وأن الحاشية قد اختلفت فيما بينها في إرساله، وقال بعضهم: لا ترسلوه، وقال بعضهم: أرسلوه، ولكنه قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي أنه نسبها للكل؛ لأنه ساعة يعود لن يستمع إليه الذين وافقوا على إرساله فقط، ولكن سيستمع إليه من قالوا أرسلوه، ومن قالوا لا ترسلوه.

يوسف عليه السلام أبلغه تأويل الرؤيا، فقال: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾[1] [يوسف: ٤٧، ٤٨]. أفهم الساقي أنهم سيزرعون سبع سنين يواصلون خلالها الزراعة، وهذا معنى كلمة: ﴿دَأَبٗا﴾[2] أي لا يوجد كسل؛ نتيجة

---

(١) قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ ...﴾ الآية، تضمّن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول:

أحدها: تعبير بالمعنى لا باللفظ.

والثاني: عرض رأي وأمر به، وهو قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

والثالث: الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن، قاله قتادة.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل هذا ألا يكون غيباً؛ بل علم العبارة، أعطى انقطاع الجدب بعد سبع، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا خصب شاف، كما أعطى أن النهر مثال للزمان؛ إذ هو أشبه شيء به فجاءت البقرات مثالاً للسنين.

المحرر الوجيز [٣/ ٢٥٠]

(٢) قال القرطبي قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها، فقال: السبعُ من البقرات السمان والسنبلات الخضر سبعُ سنين مخصبات، وأما البقراتُ العجاف والسنبلات اليابسات فسبعُ سنين مجدبات، فذلك قوله: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: متوالية متتابعة؛ وهو مصدر على غير المصدر؛ لأن معنى: ﴿تَزۡرَعُونَ﴾ تدأبون ـ كعادتكم في الزراعة ـ سبع سنين. وقيل: هو حال؛ أي: دائبين. وقيل: صفة لسبع سنين، أي دائبة.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٢، ٢٠٣]

قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني تباعاً متوالية.

الثاني: يعني العادة المألوفة في الزراعة.

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ يعني فيخرج من سنبله لأن ما في السنبل مُدَّخر لا يؤكل، وهذا القول منه أمر، والأول خبر، ويجوز لكونه نبياً أن يأمر بالمصالح، ويجوز أن يكون القول الأول أيضاً أمراً وإن كان الأظهر منه أنه خبر. =

هذا الزرع اتركوه في سنبله، أي لا تتصرفوا فيه بالتجارة ولا بالمبادلة ولا بأي شيء آخر. الزرع الذي تحصدونه في هذه السنوات السبع، خذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام، على أن يكون ذلك أقل ما يمكن. وهذه حقيقة اهتدى إليها العلم أخيراً بالبحوث المختلفة، وهي أن الشيء إذا تُرك أو تم تخزينه في وعائه من القشر الخارجي فذلك يحفظه من السوس.

إذاً... فيوسف أخبرهم بأن يتركوا القمح، الذي سيزرعونه خلال هذه السنوات السبع في غلافه الخارجي حتى يقيه من السوس والآفات. فليس المطلوب فقط الزرع بجد واجتهاد خلال السنين السبع القادمة، ولكن المطلوب أيضاً تركه في سنابله بغلافه الخارجي، بل إن بعض العلماء يقولون: إن المطلوب هو أن يُترك القمح في عيدانه كلها، وليس في السنابل أو الغلاف الخارجي؛ وذلك لكي يأكل الناس ما في السنابل، وتأكل الحيوانات عيدان القمح. وما دامت الحيوانات ستأكل العيدان، نكون بذلك قد وفرنا الغذاء في فترة الجدب للإنسان والحيوان، وليس للإنسان وحده. كما أننا عندما نطحن القمح بقشره تخرج منه الردة، كما أننا حين ندرس القمح ثم نذريه نفصل الحبة عن قشرتها.

إذاً... فهناك غلافان لحبة القمح: الغلاف الأول هو القشر الذي نطيره عندما نذريه، والقشرة الثانية تخرج عند طحن القمح.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾. ويشير إلى القشرة الحافظة للقمح، هي حافظة وداخلة في كيمياء الغذاء، فالناس الذين كانوا مُترفين يطحنون القمح، ويتخلصون من القشرة ليحصلوا على الدقيق الأبيض الذي لا يوجد داخله شيء من الردة[1].

هذه القشرة التي يتخلص منها بعض الناس ليحصلوا على الدقيق الأبيض

= قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني: المجدبات لشدتها على أهلها.

النكت والعيون [٣/ ٤٤]

(١) قال ابن عطية: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ هي إشارة برأي نافع نبيل، بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت. والمعنى: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل؛ فيجتمع الطعام هكذا ويتركب، ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءت السنون الجدبة تقوت الأقدم فالأقدم من ذلك المدخر.

المحرر الوجيز [٣/ ٢٥٠]

الصافي، هي التي امتن بها اللّه جل جلاله على خلقه في قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾[1] [الرحمن: ١٢]. أي: ذو قشرة، التي وجد أنها تحتوي على كمية كبيرة من المواد اللازمة للجسم، حتى أنهم الآن لكي يصنعوا الغذاء الصحيح،

---

(١) قال القرطبي: ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ الحنطة والشعير ونحوهما، ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ التِّبْن؛ عن الحسن وغيره.
مجاهد: ورق الشجر والزرع. ابن عباس: تِبْن الزرع وورقه الذي تعصفه الرياح.
سعيد بن جبير: بَقْل الزرع أي أول ما ينبت منه، وقاله الفراء، والعرب تقول: «خرجنا مَعصِف الزرعَ» إذا قطعوا منه قبل أن يُدرك، وكذا في الصحاح: وعَصفْتُ الزرعَ أي: جزرته قبل أن يُدرِك.
وعن ابن عباس أيضاً: العصف: ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه ويبس، نظيره: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].
الجوهري: وقد أعصف الزرعُ ومكان مُعْصِف أي: كثير الزرع.
قال أبو قيس بن الأَسْلَت الأنصاري:

إذا جمادى منعت قطرها   وَإنْ جَنَابِى عَطَنٌ مُعْصِفُ

و﴿ٱلْعَصْفِ﴾ أيضاً الكسب، ومنه قول الراجز: بغير ما عَصْفٍ ولا اصطراف، وكذلك الاعتصاف، والعصيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه التَّنبل.
وقال الحروي: والعصف والعصيفة ورق السنبل.
وحكى الثعلبي: وقال ابن السُّكَّيت: تقول العرب لورق الزرع: العصف، والعصيفة، والجِلُ بكسر الجيم. قال علقمة بن عبدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا   حَدُورُهَا مَنْ أَتِى المَاءِ مَطْمُومُ

وفي الصحاح: والجِلُ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد.
﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الرزق، عن ابن عباس ومجاهد. الضحاك: هي لغة حِمْير.
وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة: أنه الريحان الذي يُشمّ، وقاله ابن زيد.
وعن ابن عباس أيضاً: أنه خضرة الزرع.
وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق.
وقال الفراء: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل.
وقال الكلبي: إن العصف: الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو: الحب المأكول.
وقيل: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ كل بقلة طيبة الريح سُميت رَيحاناً؛ لأن الإنسان يراحُ لها رائحةَ طيبة.
أي يشم، فهو فَعلان رَوْحان من الرائحة.

تفسير القرطبي [١٧/ ١٥٦، ١٥٧]

يُطحن القمح وتترك القشرة مع الدقيق، لا يؤخذ الدقيق الأبيض الصافي وتُترك القشرة، ونلحظ أن بعض الذين يأكلون الدقيق الأبيض الصافي يُلجئهم اللّه سبحانه وتعالى إلى آخر العمر إلى أن يأكلوا الردة التي تركوها في أول العمر، فيضطر إلى أن يأكل العيش السّنّ المصنوع من الرّدة ـ وقد يكون بأمر الطبيب ـ أحياناً ما نقول له: هذا تركته في شبابك، ولم تأكله عندما كنت تأكل العيش الأبيض.

كذلك الذي يسرف في أكل الحلوى مثلاً يصاب بمرض السكر، ويُحرم من كل أنواع السكريات، نقول له: لقد أخذت نصيبك من السكر المقدر لك في حياتك كلها كباقي الناس؛ ولكنك بدلاً من أن تستهلكه في ستين سنة، استهلكته في أربعين سنة، وشاء عدل اللّه ألا تأخذ أكثر من نصيبك فحرمك من السكر العشرين سنة المتبقية من عمرك.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[1] [يوسف: ٤٧، ٤٨]. أي أنه بعد السنوات السبع المليئة بالرخاء والتي ستقومون بزراعتها. سيأتي بعد ذلك سبع شداد ومعنى شداد أي: جدب وقحط.. سبع سنوات كلها شدة لا تعطيكم شيئاً من القمح، فإن لم يكن عندكم من الحصيلة الأولى فستموتون جوعاً.

إذاً.. فالمطلوب أن يعصم الناس بطونهم في السنوات التي فيها رخاء، لا

---

(١) قال القرطبي: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيل: لئلا يسوّس، وليكون أبقى، والأمر في ديار مصر.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة. وهذا القول منه أمر، والأول خبر. ويحتمل أن يكون الأول أيضاً أمراً، وإن كان الأظهر منه الخبر، فيكون المعنى: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ أي: ازرعوا.

وقال أيضاً: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمّن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يُفوّت شيئاً منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة اللّه تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأُخروية، ومراعاة ذلك فضل من اللّه عزّ وجلّ، ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه ولا استحقاق، هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين، وبسطه في أصول الفقه.

وقال: قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني: السنين المجدبات.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٣، ٢٠٤]

يأكلون إلا على القدر الضروري. وفي السنوات الشداد يكون لديهم من القمح ما يستبقون به حياتهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾[1] [يوسف: ٤٨]. قوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾. أي ما حفظتموه في سنوات الرخاء... تأتي السنوات السبع الشداد وتأكله، وهنا نسب الحق سبحانه الحدث للزمن فقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هل السنوات السبع الشداد هي التي ستأكل؟ أم الذين يعيشون في هذه المنطقة خلال السنوات الشداد هم الذين سيأكلون؟ والحدث يحتاج إلى زمان ومكان، هنا نسب للزمن؛ لأنه هو الذي نسبت إليه الأحداث مرة رخاء ومرة شدة.

وينسب الحق سبحانه وتعالى الحدث للمكان في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ﴾[2] [يوسف: ٨٢].

هنا سنسأل القرية أم نسأل أهل القرية؟.. وهل سنسأل عِير القافلة أم سنسأل أصحاب القافلة؟ إذاً.. فقد ينسب الحدث إلى المكان أو الزمان.. ولذا كان للزمان والمكان خصوصية في الحدث، ولذلك نسب الأكل للسبع الشداد، وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [يوسف: ٤٨] أي من العرق والعمل في المحاصيل التي أتت بها سنوات الرخاء.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾[3] [يوسف: ٤٨]. كلمة حصن

---

(١) قال القرطبي: ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجاز، والمعنى يأكل أهلهنّ ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادخرتم لأجلهنّ، ونحوه قول القائل:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمُ

والنهار لا يسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يُسهى في النهار، وينام في الليل.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٤]

(٢) قال ابن قتيبة: باب الحذف والاختصار من ذلك: أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه، وتجعل الفعل له. كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي سل أهلها.

تأويل مشكل القرآن [٢١٠]

(٣) قال الماوردي: فيه وجهان:

أحدهما: مما تدخرون، قاله قتادة.

الثاني: مما تخزنون في الحصون. =

معناها الامتناع[(١)]، يقولون: بنوا حِصناً ليحتموا فيه إذا هاجمهم أعداؤهم ـ بحيث يمتنع على أعدائهم النصر، وتمتنع عليهم الهزيمة ـ واقرأ قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[(٢)] [النساء: ٢٤]. أي الممتنعات عن الفجور. ويقول جل جلاله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[(٣)] [الأنبياء: ٩١]. أي امتنعت عن التفريط في عرضها.

= ويحتمل وجهاً ثالثاً: إلا قليلاً مما تبذرون، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات.

النكت والعيون [٣/ ٤٤]

(١) قال القرطبي: والتحصين: التمنع؛ ومنه الحصنُ لأنه يُمتنع فيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتمنعكم، ومنه الحصان للفرس ـ بكسر الحاء ـ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك، والحصان ـ بفتح الحاء ـ المرأة العفيفة لمنعها نفسها من الهلاك. وحَصُنت المرأة تَحصُن فهي حَصان، مثل جبنت فهي جبان وقال حسّان في عائشة رضي الله عنها:

حَـصَـانٌ رَزَانٌ مَـا تـزن بِـرِيـبَـةٍ   وَتُصبِحُ غرثى مِن لُحومِ الْغَوَافِلِ

والمصدر الحصانة ـ بفتح الحاء ـ والحِصْن كالعِلْم.

تفسير القرطبي [٥/ ١٢٠]

(٢) قال القرطبي: فالمراد بالمُحصَنَات هاهنا ذوات الأزواج؛ يقال: امرأة مُحصَنَة أي متزوجة، ومحصِنَة أي حُرّة؛ ومنه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومحصنَة أي عفيفة؛ قال الله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] وقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤] ومُحْصنة ومُحْصِنة وحَصان أي عفيفة، أي ممتنعة من الفسق، والحرية تمنع الحُرة مما يتعاطاه العبيد. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] أي الحرائر، وكان عُرْفُ الإماء في الجاهلية الزنى؛ ألا ترى إلى قول هند بنت عتبة للنبي ﷺ حين بايعته: «وهل تزني الحرّة»؟ والزوج أيضاً يمنع زوجه من أن تتزوج غيره فبناء (ح ص ن) معناه المنع.

تفسير القرطبي [٥/ ١٢٠]

(٣) قال القرطبي: «وأحصنت» يعني: عَفّت فامتنعت من الفاحشة. وقيل: إن المراد بالفرج فرج القميص، أي لم تعلق بثوبها ريبة، أي إنها طاهرة الأثواب. وفروج القميص أربعة: الكمان، والأعلى، والأسفل.

قال السهيلي: فلا يذهبَنَّ وهمك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية؛ لأن القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظاً، وألطف إشارة، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القُدُّوس، فأضف القدس إلى القدوس، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس.

تفسير القرطبي [١١/ ٣٣٨]

كل هذا معناه الامتناع ومعنى ذلك أنك بعد انتهاء السبع الشداد ستحتاج إلى تقاوي، ولذلك فلا تأكل القمح كله، لا بد أن تبقي ما ستستخدمه كتقاوِي بعد انتهاء سنوات الجدب. ولذلك امتنعوا عن أكل التقاوي، واحْرُسُوها جيداً فلا يصل إليها أحد؛ لأنكم إن أكلتموها يكون القمح قد انقرض من عندكم فلا تجدون ما تزرعونه لكي تحصدوه وتأكلوه.

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه لا بد أن نعمل على استبقاء النوع، وأهم شيء في استبقاء النوع بالنسبة للزرع أن تحفظ التقاوي، ولو أن كل فلاح لم يحجز كمية من المحصول الحالي لتكون تقاوي للمحصول القادم، لانقرض الزرع ولم نجد ما نزرعه.